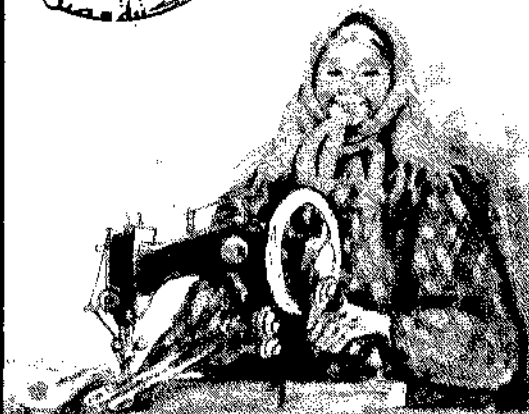


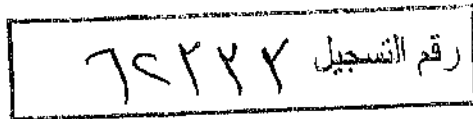
مصر عبد الحليم عبد الله



حلم آخر الليلة



محمّد الحليم عبد الله



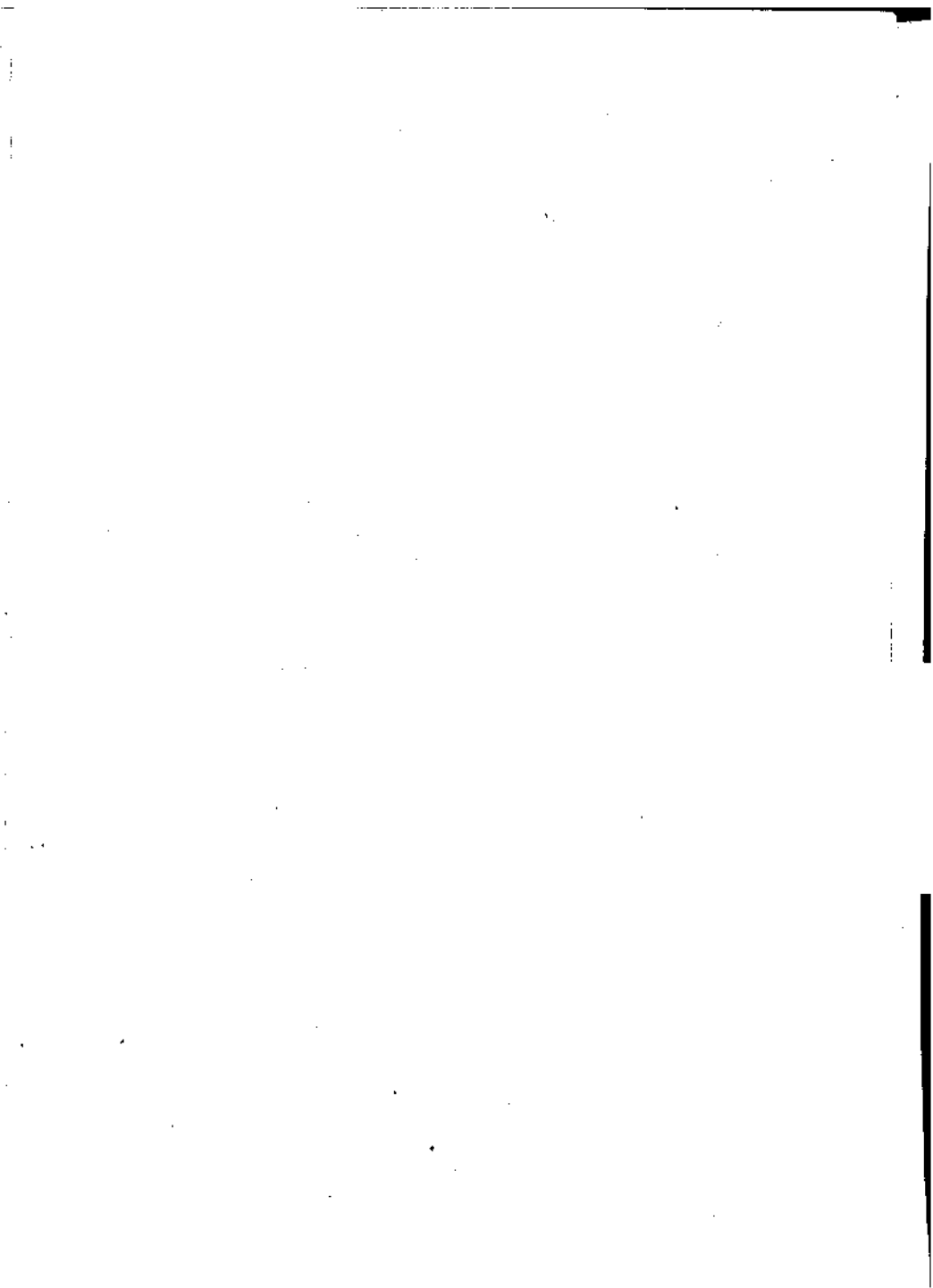
حلم آخر الليل

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صديق - الجيزة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه





المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

« حلم آخر الليل »

بقلم الدكتور : حلمى محمد القاعود

[هذه الدراسة مهداة إلى روح المرحوم الأستاذ الدكتور سعد شلبى ، فقد كان يرحمه الله مهتماً بها وكان يتمنى أن يراها ويقرأها مع هذه المجموعة ، ولكن قضاء الله سبق ..] .

هذه مجموعة قصصية لم تنشر فى كتاب من قبل للقصصى والروائى الراحل « محمد عبد الحليم عبد الله » — يرحمه الله — وتضاف إلى رصيده الكبير فى أدب القصة والرواية الذى يقارب الثلاثين كتاباً .

وقد نشر معظم هذه المجموعة على مدى عقد الخمسينيات ، وأوائل عقد الستينيات ، وبعضها فى أواخر الأربعينيات ، بعدد من الصحف والمجلات أبرزها : المصور ، وروز اليوسف ، والرواية ، والرسالة الجديدة ، والتحرير ، والثورة ، والشعب ، وحواء الجديدة ، ومنبر الإسلام .. وكان الكاتب يرحمه الله — قد بلغ فى تلك المرحلة درجة كبيرة من النضج ، جعلت هذه الدوريات وغيرها تتسابق إلى نشر إنتاجه الأدبى ، وتعنى به وتبرزه من خلال لوحات ورسوم يقوم بها كبار الفنانين الذين يعدون صفحاتها .

وهذه المجموعة تعيدنا إلى ذلك الفن الجميل الذى نفتقده كثيراً فى الإنتاج

القصصى المعاصر ، والذي آلى على نفسه ألا يعبر — غالبا — إلا عن كل ما هو دميم وقبيح ومؤذ للمشاعر الإنسانية ، دون أن يعطينا لمحة من جمال أو لمسة من ذوق تساعدنا على تقبل الحياة ومواجهتها ، أو الاقتراب من مناطق النور والحضرة والأمل . ! إننا للأسف نتعامل مع إنتاج قصصى تكاد مهمته تكون محصورة في التفتير من الحياة ، وزرع اليأس والإحباط بكل الوسائل الفنية الممكنة ، وهذا — لعمرى — لا يشكل — من وجهة نظرى على الأقل — صورة متكاملة للفن الناضج أو الأدب الإنسانى .

أما مجموعة « محمد عبد الحليم عبد الله » ، فإنها تفقدنا بيد حانية إلى ذلك العالم الرحب الذى نرى فيه المشاعر الإنسانية متدفقة بالحياة والأمل ، وتحرك فيه الشخصيات من زاوية الرغبة في بناء المستقبل ، وليس من زاوية كراهية العالم ومن فيه . إننا بإزاء عالم قصصى يُشيعُ الدفء والحنان والعافية ، وينادى على كل المهومين والمجروحين والمأزومين : ها هنا الحلم الجميل ، والسلوى الطيبة ، والعزاء الرقيق .. ثم يطلب منهم أن يسارعوا إلى معانقة الحياة والإصرار عليها في إطار جذاب وشائق وحميم .

إن الكاتب ينطلق في هذه المجموعة — كما في كل أدبه تقريبا — من رغبة قوية ، في معانقة الإنسان الذى يتميز بالعاطفة الصادقة والوجدان الصافى والإحساس المرهف ، وهى رغبة يغذيها حسه الإسلامى الذى ينحاز للإنسانية ويتعاطف معها ، في حالات قوتها وضعفها ، وشموخها وانكسارها ، وسموها وسقوطها .. ويحذب عليها دائما باليد الحانية التى تهذب الشراسة ، وتجير الضعف ، وتواجه الضراوة والغلظة والقهر ، وتحنو على المقهورين والبائسين والاحتاجين ..

وهذه الرغبة التى تنتصر للخير دائما ، وتنقب عنه في كل مكان ، حتى بين الأنقاض التى يحلفها الشر . نراها متألفة على جبين الشخص الميثوثة في ثنائيا القصص ، وهى شخوص متنوعة تتراوح بين الإنسان البسيط والإنسان المثقف .. شخوص تنتظمها صور الطالب والتلميذة ، والمدرس وناظر المدرسة ، والفرزى والموظف الصغير ، والفلاح والعامل ، والأرملة والمطلقة ، والعروس في شهر

(ح)

العسل والبنّي رغما عنها ، وسائق التاكسي والحادم ..
والكاتب يقدم هذه الشخصيات من خلال تحليل فني لغوي راق يعتمد الوصول إلى أعماقها النفسية والعاطفية ، فيصوّرها من الداخل تصويراً ممتعاً ورشيقاً ، بلغة نفتقدها عادة في هذه الأيام ، ولا يصعب عليه أن يرصد المشاعر الدقيقة لهذه الشخصيات في حالات مختلفة ، فنراه يقدم لنا مشاعرها حياة متحركة في لحظات الفرح والحزن، واليأس والموت ، والعافية والمرض ، واللقاء والفرق ، والبهجة والكآبة ، والسرور والألم ، والاندماج والوحدة ، والامتلاء والخواء ..
ويصوغ الكاتب هذه الأحاسيس الإنسانية المشبعة بروح إسلامية في تصوير فني رقيق ينتظم قصص المجموعة ، ويجعلنا نتوقف عند بعض النماذج حتى يرى القارئ ملامحها ودلالاتها ، وهي نماذج تنتظم البسطاء من الناس الذين يكونون معظم المجتمع ، أو يشكلون طبقته المريضة ؛ هذه الطبقة التي تتعامل مع الحياة بمنهج الفطرة والبساطة ، وتحاول أن تحقق ذاتها أو رغباتها بتلقائية أو عفوية بعيدة عن المكر والحيل ، أو التعقيدات التي باتت تشكل حياة الإنسان في المجتمعات المتمدنة أو التي أخذت من المدنية قشورها وأمراضها ..

النموذج الأول الذي نختاره من المجموعة هو نموذج المرأة الغيور التي تسعى إلى امتلاك زوجها كله . ويدب الشك إلى نفسها . ويتسرب الخلل إلى نسيج الحياة الزوجية مما يكاد يهددها ويحطمها تماما .. هذا النموذج الحاد العاطفة ، والذي يعبر عن نفسه بجملة أيضا ، لا يسمح له الكاتب أن يصل إلى غايته بتحطيم الأسرة ، بل يقدم له طرق النجاة مثلاً في النموذج المقابل . وقصة « الشيء الممكن » ، تصوّر لنا هذا النموذج المقابل مثلاً في الصديقة التي لا تتكلم كثيراً ، ولا تبدى شيئاً عما تعانيه في حياتها الزوجية ، بل تحاول أن ترى الجانب الطيب في حياة زوجها أو تخلقه خلقاً ، لتستعين به على الجوانب الأخرى غير الطيبة « أحسّت أنها تزوّجت أداة من الأدوات ، نوعاً يكاد يكون خائياً من المواطنين . هو حقيقة ملء بالحياة ، ولكن

إذا كانت الحياة شجرة ، فإن العواطف أزهارها ، وهى خلاصة إحساسنا وعطر وجودنا ، وكانت صاحبتنا تعلم ذلك لكنها لم تفزع حين رأت بيتها مليئاً بكل شيء إلا الأزهار ..

هذا النموذج الذى خلا بيته من كل شيء إلا من الأزهار — رمز العواطف واستمرار الحياة فى صورتها الراقية — لا يستسلم لليأس أو الإحباط ، وإنما يفزع إلى الصلاة — وهو تصور إسلامى واقعى — والفرع إلى الصلاة ملاذ حقيقى وطبعى ، يسجل به اللائذ خطوة تلقائية فى الاتجاه الصحيح نحو من أعطانا منحة الوجود ، وهو بدوره قادر على إعطائنا منحة الصبر على ما يقلق هذا الوجود ، « كانت نصلى كلما كانت مهمومة خصوصاً فى الليل عندما تتكاثر على جسمها متاعب النهار وعلى قلبها هواجس الظلمة » ، وكان الكاتب يشير بذلك إلى الآية الكريمة ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ (البقرة) . إذا فهذا النموذج المتمسك بأهداب الإيمان ومواجهة المنة ؛ يبحث عن المناطق الخضراء ، أو دوائر الضوء فى حياة الأسرة ، فتجد الزوجة الصبور أن زوجها يتميز بقدرته على تحملها وعدم إغضاها ، فتحاول أن تستغفره مرة ومرة ومرة ، وفى كل مرة لا يحاول أن يسيء إليها أو يرد عليها الاستفزاز كما يُتوقع ، وعندئذ تدرك أن هذا جانب مضى وعظيم فى حياة رجلها . « وكانت كلما سجّلت فى إثارة رقما سجل فى الصبر والعفو عنها رقما أعلى ، حتى كان يوم من الأيام فأنخرطت فى بكاء شديد بعد إحدى التجارب ، واحتضنته بخنان ، وهى تقول له : أنت لا تدري أى رجل أنت ؟ أنت أكرم من ملك . إننى أحبك . فأحسست فى روحه بعثاً جديداً ، ومنذ ذلك التاريخ عاشت حياة ليست كحياة العشاق ولكنها خالية من المتاعب » .

إن الكاتب يحرّك شخصياته بمهارة بحيث تفتص كل الصدمات ، وتستوعب كل الأزمات ، وتبدأ فى التغلب عليها ومواصلة الحياة : « ليس فى الموقف شيء يخافى للعادة . أكبر الاختراعات يبدأ بمحاولة وأطول الرحلات يبدأ بالخطوة

الأولى .. » .

وهذا النموذج لا يختلف كثيرا عن النموذج الذى يقدمه فى قصته « امرأة ومصباح » : فالنموذج هنا مدرّب على العطاء ، والعطاء بلا حدود بالرغم من وجود من « يأخذ » فقط . والمفارقة قد تبدو نوعًا من السلوك الساذج عند من « يعطى » ولا « يأخذ » . ولكن على الخافز على العطاء شيء كبير .. بل أكبر من كل شيء .. إنه الحب الغريزى الذى وضعه الخالق فى قلوب الوالدين للأبناء « فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا وقد يزيد عليه ، ونحن مع ذلك وفى غفلة لذيدة ندفعه مسرورين » .

ويقوم الكاتب مفارقتها من خلال أم تسمى لزواج بناتها ، بعد رحيل زوجها ، فتبيع البيت الذى أقامته معه بالعناء والعذاب وشد الحزام المشدود أصلاً — ويتم البيع جزءًا جزءًا ، مع كل زواج يتم بيع جزء . وعندما يتم زواج البنات تستأجر غرفة السطح فى البيت الذى كان ملكا لها ولأولادها ، وتعمل على ماكينة الخياطة لتواصل الحياة .. بينما البنات اللاتي تزوجن يمارسن الحياة وكأن شيئًا لم يحدث .. وها هى أخبار بناتها « زينب » و« فاطمة » و« رقية » بعد رحيلها تصنع المفارقة ، وتؤكد على الضريبة التي تستغرق الدخل كله « وقد تزيد عليه » :

« فى بيوت أخرى ، قال محمد لزينب :

— هل اطمأنت على إختان الولد .. أوه .. لكأنك مريضة منذ شهر .. هذا هو

حال الدنيا .. تعالى قريباً منى ..

فالتصقت به فى صمت ..

وقال على لفاطمة :

— هل أعطيت البنت دواء السعال ؟ هل غليت الطبخ حتى لا يجمض ؟ ..

أوه .. ليس فى عينيك بقية للبكاء . تعالى قريباً منى .

فسحبت عليهما الغطاء .

وقال إسماعيل لرقية :

— إن خذك ملتهب من اللطم . إنها تنام في قبرها مرتاحة .. فقد اطمأنت على مصير البنات .. أوه .. خذك ملتهب جدا .

وحين مرّت أنامله على خذّها أحسّت بنعومة المرهم ..

وبعد ساعة أخرى كانت البنات الثلاث مستغرقات تماما ..

لقد ضحكت « الأم » بكل شيء من أجل بناتها وسعادتهن ولم تعبأ بكلام الناس وتعليقهم على تصرفها ببيع البيت وإنفاق ثمنه على زواجهن ، والعيس في غرفة السطوح « وتنامس أهل الحيّ بأمر هذه الأم ، وقال ناس إنها محقة . وقال ناس بل إنها مخطئة ، فلو كان زوجها يعلم أن البيت الذي خلفه سيؤول إلى هذا المآل ما بذل فيه جبة عرق .. » ولكنها كأم وجدت فلسفة لهذا العطاء الكبير ، أو وجدت المبرر الإنساني المجرد الذي يعلو على كل المقاييس المادية المجرّدة « ثم بدأت تشعر بشيء يخوفها . كأن حادثاً كبيراً سيحدث عليها باب الغرفة الذي يهزه في الليل هواء الشتاء ، وقالت في نفسها ، هل سيموت زوجي مرة أخرى ؟ واستغرقتها بعد ذلك فكر لذيذ :

— آه .. « زينب » في حضن « محمد » . و « فاطمة » في حضن « علي » . وأخيراً .. « رقية » في حضن « إسماعيل » .. كل بنت تحت جناح رجل . هل في الدنيا أعزّ من هذا ؟ » .

هذا التبرير الذي تقدمه الأم لتضحيتها تبدو أهميته وعظمته — وربما سداخته — من خلال ذلك الصراع الرخيص بين البنات على ماكينة الخياطة التي تركتها الأم ، وهو صراع لا يعبأ بشيء ، ولا يضع في اعتباره تضحيات الأم العظيمة .. بل يبدو قائماً على الجحود والعقوق .. وبإلحاح السخرية حين نراه يتلفع بعباءة الشرع الكريم .

« .. والتفت النظرات أخيراً على ماكينة الخياطة .

لكن الصغرى صرخت فيهما :

(ز)

— هل جئنا من أجل ذلك ؟

فقلت أختها :

— حتى أنت .. هل هذا حرام ؟ إنه أحل من لبن الأم !! .

إن الكاتب يجعلنا نتعاطف مع هذه المرأة ، ونقدر عطاءها ، ونحترم عاطفتها وغريزة الأمومة التي جعلتها تكافح حتى تموت منكفة على ما كينة الحياطة بينا مصباح الغاز يلفظ أنفاسه الأخيرة ، من أجل سعادة بناتها ..

ونعثر على نموذج مشابه يقدمه الكاتب في قصة « بقية العمر » . إنه نموذج المرأة التي تكافح من أجل أسرة مازال ربها على قيد الحياة ، ويتمتع بالصحة والعافية والحرفة ، ويمثل النموذج السليبي الذي يجيد الكسل والهروب من الحياة والفرق في بحار الوهم والخيال .. ولسبب ما لا أدريه جعل الكاتب معظم نماذجه المكافحة ، والمقاومة لتعاب الحياة من « النساء » ، ليس في هذه المجموعة فحسب ، بل في مجموعات وروايات أخرى .. لعله أراد أن يبين أن الإنسان مهما كان ضعيفا (والمرأة أبرز النماذج التي يظهر من خلالها الضعف) يستطيع أن يواجه الحياة بشجاعة ورزاة وصبر ، ثم يمكنه أن ينتصر في النهاية أيها كان هذا الانتصار .. ولو بالسعادة التي تنتقل عدواها من سعادة الآخرين الذين يحبهم ويعمل من أجلهم .

في قصة « بقية العمر » نجد زوجة عم « زكى » — المنجذ — مثالا للمرأة التي يتلها القدر بزواج مهمل ، يحلم أكثر مما يعمل ، ويطلب منها ما لا تملك ، وهي مرغمة في الوقت ذاته على تسيير دفة الحياة الأسرية « وكانت في الواقع امرأة مستقيمة كحد السيف ، عاشت في بيت عم زكى كما يعيش القبطان العظيم فوق ظهر سفينة صغيرة قديمة تلفة العدة » ، وكانت تدير البيت « بطريقة سحرية ، تقتصر ولا يشعر أحد ، وتؤخر أجرة السكن ولا يشعر أحد ، وتطهو أغس أنواع الأطعمة بطريقة من يحمر خروفا ، وتيسم في قلبها جروح .. وكانت تقول لأمي عندما يفيض بها الغم : إنه لا أمل .. لا أمل إلا في شيء من شيئين : فإننا أن تموت

(ج)

فترتاح ، وإما أن يصير ابنها صلاح رجلاً من غير طراز أبيه .
هذه الزوجة الأم تواصل مسيرتها وكفاحها حتى تلقى وجه ربها ، ويبقى زوجها كما هو ، بكسله ، ولا مبالاة ، وأحلامه ، ولا بأس أن ننقل تصوير الكاتب لشخصيته : « كان كسولاً ثرثاراً مهملاً أكلوا ، من نوع الرجال الذين يستطيع الفساد أن يتسلل إلى بيوتهم بسهولة .. فالنقود القليلة التي يقدمها لزوجته ، والنقود الأقل التي يمد صلاح ابنه بها البيت ، كان عم زكى يريد أن يأكل منها ويدخن ويهمل ويرتاح ويحكى لضيوفهم حكايات خرافية من أيام العز .. أيام كان للمنجد عز الحرير وعظمة القطيفة .. وكانت النفوس سخية والأفراح تقام سبعة أيام بلياليها .. أما زوجته فكانت تضيق بهذا كله وتكتم تهدياتها عن الحاضرين .. »
لا شك أن « محمد عبد الحليم عبد الله » أراد أن يرفع من قيمة النموذج العامل ، ويسخر من النموذج العاطل ، وقد استعان على ذلك بتصوير حي يعتمد على الروح الشعبى الذى ينعت معجباً خاصاً دلالة في الوجدان الاجتماعى « أيام كان للمنجد عز الحرير وعظمة القطيفة » ، ولكنه يتقدم خطوة وأخرى في تصوير النموذج العاطل ، الذى يأخذ دون أن يعطى ، يحدثنا في ختام القصة عن نوع الوظيفة التى يطمح إليها عم زكى بعد أن ماتت زوجته :

« ... وحركتني فضول شديد فحاولت أن أعرف ماذا عسى أن يكون نوع وظيفة تصلح لعم زكى ويصلح لها عم زكى . فسألته ، فقال ببساطة من يوضح أمراً واضحاً :

— خفير !

قلت مستغرباً :

— خفير ؟ .. خفير على ماذا ؟

— خفير مراحيض ..

فقلت في نفسي وأنا أبطئ السلم وأدور مع انحناءاته في ظلمة النهار :

— وجب .. هذه أحسن مهنة تناسب هذه المهمة .. »

وواضح أن عنصر السخرية هنا — وهى سخرية راقية إن صح التعبير — يلعب دوراً كبيراً فى تصوير شخصية عم زكى النموذج السلبى المقابل للعنصر الإيجابى الذى تمثله زوجته .

وهكذا ينهج الكاتب فى تقديم نماذجه التى تتضمنها قصصه ، فتراها فى العادة شخصيات قادرة على العطاء بالرغم من كل الصعوبات التى تواجهها فى مقابل شخصيات مستعدة أو متحفزة للأخذ دائماً ، ومبررات العطاء عنده بسيطة وسهلة .. إنها نفسها مبررات الحياة .. الحياة الإنسانية التى يشعر فيها صاحبها بطعم الحياة الحقيقى ، ولهذا الحياة الإنسانية ملاحظها وسماتها التى تتمثل فى حركة العواطف واختلاجها داخل الصدور وخفقانها بالحب والأمل ، والعطاء والسمو .. وكثيراً ما نعر على نماذج تضحي بكل شئ من أجل هذا الخفقان الذى لا يعرفه من يكتفون من الحياة الإنسانية بجانيتها « البيولوجى » فقط . إن هذه النماذج مبثوثة فى معظم القصص « انظر مثلاً : اقتلوا بسيف الحب — أملا ن يتحققان — حلم آخر الليل — جددنا المواعيد — السلوى ..) .

واعتقد أن هذا الاتجاه الإنسانى المتوهج الذى يلج عليه « محمد عبد الحليم عبد الله » هو الذى يجعل لقصصه قيمة مستمرة ، بحيث تجد فيها الأجيال المتتابة ، ما يشبع وجدانها المتلهف لقطرة ضوء وخفقة أمل ولحظة صفاء ، ويساعد على تجاوز الصعاب وتحقيق الغايات .

وقد اختار الكاتب لهذه النماذج إطاراً فنياً يقربنا إليها أو يقرّبها إلينا ، هذا الإطار هو القصص بضمير الغائب غالباً ، وضمير المتكلم أحياناً ، ومن خلال الالتفات يعتمد على أسلوب فيه مودة وألفة .. صديق يحكى لصديق . وهذه ميزة يقتدر إليها معظم إنتاجنا القصصى المعاصر الذى يجعلنا نشعر تجاهه بشئ من الغربة أو النفور ، بسبب استعلاء الكاتب ، أو محاولته أن يكون أستاذاً . العكس عند « محمد عبد الحليم عبد

(ى)

الله » ، وهو يقدم نماذجه . تستشعر أن بينك وبينه ودّ قديم ، وسابق معرفة ، ولهذا يتسلّل إلى نفسك في نعومة وسهولة لا تحسّ معهما أنه سيعطيك درساً في مقاومة الحياة أو مواجهتها ، أو يدعوك للسخط عليها وعلى من فيها .. ولكن قربه منك يجعلك تلقى إليه بكل نفسك وسمك وبصرك وعقلك ، وتتابعه بشغف وتلهف ، ورضا .. ولهذا تستجيب له ، وتتفاعل مع جميع شخصياته ، حتى الشخصيات الزائدة عن الحاجة ، بل ومنع القصص الخارجية التي يتخذ منها مدخلاً أو مقدمة للقصة الأصلية أو الموضوع الأساسى الذى يريد أن يحكى لك عنه .. صحيح أنه يتكىء على الحادثة أو الشخصية ليقدم قصته القصيرة . ولكن اهتمامه الكبير « بالرواية » التى برع فيها وصار من أبرز بناة المحدثين ، جعله ينسى أحياناً أنه يكتب قصة قصيرة مكثفة الحوادث والشخصيات ، فيقدم لنا مشروع رواية حيث تتعدد فيه الشخصيات والحوادث ، أو يقدم قصة من داخل قصة ، أو يمدّد زمن القصة بحيث يطول طولاً زائداً على الحد المتعارف عليه فى القصة القصيرة ..

إننا لو نظرنا مثلاً إلى قصة « اقتلوني بسيف الحب » سنجد الفترة الزمنية تطول إلى مدى لا تحمله إلا رواية . وكذلك قصة « أملان بتحققان » ، أما فى قصة « بقية العمر » التى أشرنا إليها فهى تحفل بأكثر من قصة هامشية ترتبط بالقصة الأساس ، ولكن فى إطار زمنى مطوّل .. ولعل القصة التى تجاوزت هذا المأزق ، قصة « السلوى » ، وإن كان الكاتب قد صاغها ببراعة فيما يشبه المغارقة أو التوازى بين قصة السائق وخطيبته ، وقصة الرجل والمرأة اللذين ركبا التاكسى ثم شاهدا الفيلم ، وقصة الفيلم ذاته التى تدور بين امرأة وحبيبها وهما فى مرحلة الفراق .. ومثل قصة « السلوى » قصة « جددنا المواعيد » وهـ يريد أن ينساها » وهـ اليوم الموعود » ، فقد راعت التكثيف والتركيّز فى الحوادث والشخصيات إلى حد كبير . وكما قلت منذ قليل ؛ فإن المودة التى يزرعها الكاتب فى نفس قارئه تجعله يتجاوز هذه السليبات فى البناء القصصى ، ويغفر له أنه من البناء الذين أصّلوا لفن القصة

والرواية في أدبنا الحديث ..

ويبقى أن نشير إلى ظاهرة من أهم الظواهر الفنية التي تميز بها أدب « محمد عبد الحليم عبد الله » ، وهى أسلوبه المضىء الذى يحقق معادلة من أهم المعادلات المفقودة لدى الكثيرين ، بعد أن ابتليت الحياة الثقافية بكتاب لا يفقهون أوليات التعبير الأدبى ، ويكتفون بالثرثرة عن بعض النظريات الأدبية التى لا تحقق تقدماً أدبياً يذكر . هذه المعادلة هى التعبير الأدبى المتميز من خلال أسلوب راقى فى عفوية وتلقائية . ويمكن أن نعتبر « محمد عبد الحليم عبد الله » تلميذاً من أهم تلاميذ « مدرسة البيان فى النثر الحديث » بعد جيل الرواد ، بل نعتبره الصورة المطوّرة والمتقدمة لأسلوب واحد من الرواد بعينه هو « مصطفى لطفى المنفلوطى » .

إنّ محمد عبد الحليم عبد الله فى أسلوبه القصصى هنا ، وفى كتبه الأخرى يحتفى بالأسلوب احتفاءً كبيراً ، ويقدم لنا لوحات رائعة ، يظهر فيها الأسلوب المطبوع الذى يحقق تناسباً وتناسقاً وتناغمًا ، دون أن نشعر فيه بأثر للافتعال أو التكلف . إنه الأسلوب الذى يضم جناحيه على المعنى الجميل والأداء المتألق ، ويخلف لنا المتعة والإحساس بجودة الفنّ وجماله . ولنقرأ هذه اللوحة من قصة « الشئ الممكن » وهى تصوّر كيف تغلبت « سعاد » على إحساسها بالفشل فى حياتها الزوجية :

وفى إحدى الليالى حاولت أن تتجه إلى الله فى صلاتها بمشاعرها كلها . أحسّت أنها تريد أن تكلم أحداً وأن تستعين بمن هو أقوى منها . وبطريقة آلية بدأت صلاتها . ورويدا رويدا زالت الآلية عن الصلاة وحل محلها اندماج وخشوع وشئ يكاد يكون اتحادا . فلما فرغت رأّت دموعاً على خدها وراحة بين جوانحها .

ومنذ هذه الليلة أدركت أنه من الممكن تحريك المشاعر بالطريقة التى تحرك بها « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام . وهكذا يصبر من يتكلف الصبر ، ويتشجع من يتكلف الشجاعة ، ويكفى من يتكلف البكاء .. وقد يحب من يتكلف الحب .. هل تسمعينى يا أحلام ؟

— نعم أسمع ..

— ومنذ هذه الليلة أخذت تبحث في زوجها عن نقطة تبدأ منها عملية « الحب » ، فوجدت فيه شيئاً جديراً بالحب . هو أنه رجل صبور شديد الاحتمال يتسامح عن غضبها وأخطائها حياله . فماذا فعلت ؟
صارت تعتمد أن تغضبه فينظر إليها نظرة الصابر الغافر . عندئذ تنجبه إل قلبها لتقول له : « ألا تستطيع أن تحب هذا أيها الجاحد ؟ » .. إلخ .

هنا أسلوب بسيط وسهل ، ولكنه ممتنع كما يقول البلاغيون والنقاد ، لا يصل إليه إلا الأديب الموهوب الذى يملك ثروة أدبية ضخمة تجعله يصدر عن طبع ، ويصوّر عن فطرة ، وها هو يرسم حال الزوجة البائسة الوحيدة في سعيها إلى من يشاركها همومها ، واندماجها في الصلاة — بعد أن كانت تؤذيها بألية — ثم تعرفها على الطريق الصحيح إلى حل مشكلتها .. وهو أسلوب متميز بلا شك ، لا أثر فيه للكليشيهات المحفوظة عن السابقين ، ولكنه مستقل بذاته وبصوره وتشبيهاته . وانظر إلى تصويره لعملية تحريك المشاعر كما يتحرك « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام ، تجد تعبيراً يستحق أن ينسب إلى محمد عبد الحليم عبد الله ، بالرغم من بساطته ويسره وقربه إلى كل الناس .

وفي هذا الأسلوب خاصية أخرى تحتاج إلى وقفة طويلة ليس هنا مجالها ، ولكننا سنكتفى بالإشارة إلى بعض نماذجها وملاحظها .. هذه الخاصية هي ما يمكن تسميته بـ « استخلاص الحكمة » أو فن « صنع الحكمة » عبر السياق السردي أو الحوارى الذى يجرى فى القصة . فقد يثر الكاتب فى ثنايا قصته أو روايته حكمة هنا ، أو قولاً مأثوراً هنالك ، وتبدو الحكمة أو القول المأثور بمعزل عن السياق ، ويمكن بترها دون أن يتأثر النص ، ولكن الأمر هنا يختلف تماماً ، فالكاتب يجعل من الحكمة أو القول المأثور جزءاً من النسيج القصصى لأنه يستنتجه من خلال الموقف القصصى ، فيعطى مذاقاً خاصاً ومتميزاً له دلالة ، وديمومته أيضاً . ويستعين الكاتب فى ذلك

بكل عناصر البيان والبدیع المتاحة ، التي تحملو الحكمة المستخلصة في قالب أنيق وجميل . يقول في قصة « حلم آخر الليل » : « في حياتنا مناطق يجب أن تبقى في ظلام . والويل كل الويل لمن يسלט عليها الأضواء بيديه أو لمن ترسل له المقادير شعاعاً من الخارج يضئها على الرغم منه .. » ويقول فيها أيضا : « إن أخطأنا هي أكثر الحقائق فاعلية في حياتنا . أما الصواب فإننا ننعم بثمراته فتلهينا ثمراته عنه .. » .

وفي قصة « اليوم الموعود » يقول : « لكن الحقيقة في موطن الشبهة أضعف بكثير من الباطل إذا ظللت الثقة » أو يقول : « والسؤال المؤلم يؤلم ، ولو كان صادراً عن سذاجة أو حسن نية » .

وفي قصة « اقتلوني بسيف الحب » نقرأ قوله : « أعطيت ما طلب لأذوق طعم الغفلة فقط ، أو لأذوق طعم الحب ولو كان في كأس من الاحتيايل ، أو قوله « عجيب أن نحب فنسعد ، وأن نحب فنموت » أو قوله : « شاخ الحذر في عينها لكنه بقي حياً » .

وفي قصة « امرأة ومصباح » يقول : « في حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا كله ، وقد يريد عليه ، ونحن مع ذلك ، وفي غفلة لذينة ندوقه مسرورين » أو يقول : « والخبز مُشبع جداً لمن يغمسه في القناعة » .

وفي قصته « الشيء الممكن » يتحدث عن الفراق فيقول : « وفي اللحظة الأولى التي يبدأ فيها فراق الأصدقاء يسأل كل نفسه ، ويسأل الآخر : كيف يستطيعان التغلب على الزمن وصنع النسيان ؟ وتبدو المشكلة في الواقع ضخمة عسيرة ، ولكن حركة التجديد والتعويض تقهر كل شيء وتضمن لحياتنا الاستمرار » ..

إن القارئ يثر على نماذج وعينات كثيرة لاستخلاص الحكمة أو الحكمة المستخلصة تصنعها المواقف القصصية ، ويصعب أن نبتريها عن السياق لأنها جزء منه ومرتبطة به ، ومع ذلك ، فإننا نستطيع أن نستفيد بها كصورة تعبيرية مستقلة تحمل لنا تعبيراً حكيماً يظل معنا إلى أمد بعيد .

وبعد ..

فإن هذه المجموعة « حلم آخر الليل » بقايا عطر من مؤلفها الراحل « محمد عبد
الحليم عبد الله » وهي تعيدنا مرة أخرى إلى عصر القراءة الجميل الذى غاب عنا
طويلاً ، وتجعلنا نعيش في واقع قصصى مفعم بالحياة الإنسانية ، ويقوم على أسس
فنية لا يقدر عليها إلا واحد من أعمدة الأدب القصصى والروائى في عصرنا الحديث
هو : محمد عبد الحليم عبد الله ؟

أبو المجد بحيرة : ١٥ من جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ
١٤ من فبراير ١٩٨٧ م

حلمى محمد القاعود

قصص المجموعة

- | | |
|-----------------------|------------------------|
| ١ — حلم آخر الليل | ١٢ — أملان يتحققان |
| ٢ — الراية البيضاء | ١٣ — بركة مخزن القمح |
| ٣ — سقف من الزجاج | ١٤ — بقية العمر |
| ٤ — الشيء الممكن | ١٥ — صديقان في المدينة |
| ٥ — السلوى | ١٦ — جددنا الموعد |
| ٦ — القتلوى بسيف الحب | ١٧ — عبر الحرية |
| ٧ — الرجل المريض | ١٨ — قلب إنسان |
| ٨ — سحابة صيف | ١٩ — اليوم الموعود |
| ٩ — امرأة ومصباح | ٢٠ — لقاء في الصيف |
| ١٠ — يريد أن ينساها | ٢١ — حنانك يا أبى |
| ١١ — زوجة مثلها | |

حلم آخر الليل

كل ما كنت أرجوه في حياتي بعد أن بلغت الخامسة والخمسين ، أن أقضى بقية أيامي وأنا هادئ مرتاح ، لا يعكر الفكر صفوى ولا يحال بيني وبين لذات عادية . وهذا هو آخر أحلامي في حياة كأنها ليل طويل . لقد كنت جد طموح في أيامي الخالية ، لكن المقادير عارضت طموحي وأقامت في طريقي العراقيل ، فرفعت الراية البيضاء معلنا تسليمي ، وأقنعت نفسي بأنه لا بد من الرضا بالواقع لأن السنوات القادرة والأيام المثمرة من عمري قد ولت ولن تعود ..

وجلس في هذه الليلة أفحص مرافقي واحدا بعد واحد ، حتى اطمأننت إلى أن بين يدي من المال ما يصون كرامة الحبي ويحفظ قيمة الإنسان : معاشي لا بأس به من وظيفتي في الحكومة ، ودخل متوسط من بيتين لي في القاهرة أحدهما في حالة جيدة والآخر عمره أطول من عمري ، فهو لن يهدم إلا بعد أن أموت ..

وبعد ذلك كله .. فإنه ليس لي وارث من صلبى .. وهذا هو حجر الزاوية في قصة حياتي ، والشئ الذي يلقي ظله على تصرفاتي مع الناس وخصوصا زوجتي وأقربائي .

* * *

أصبحت ذات صباح فأعلنت لزوجتي بعد أن فرغنا من الفطور وقبل أن نقوم عن المائدة ، أنني عزمتم على أمر .. خلاص .. ولعل أمارات الجدل كانت بادية على وجهي لأني رأيت مدى ذلك على ملامح زوجتي

الجميلة التي تكمن أنوثتها كلها — وبكل إمكانياتها — في صوتها وحده .
قالت تستفسر عن ذلك الأمر :

— إيه .. خير ..

قلت :

— كل متحرك على الأرض يسعى إلى غاية ..

ثم سكت ونظرت إلى خشب الخوان ويدي تعبت بإحدى الملاعق ،
وألقيت بسمعي هنيهة إلى واعظ الصباح في الراديو وهو يجهد نفسه
مؤكدًا لنا حقارة الدنيا ، ثم ألقيت بالملعقة في حركة تنم عن إصراري ..
ونظرت إلى زوجتي فرأيتها لا تزال مرهفة سمعها وعيناها مفتوحتان
لا تطرفان ، فأكملت :

— أنت معي يا سيدتي في أن كل متحرك على الأرض يسعى إلى
غاية .. أى قطار .. أو أى إنسان .. وحتى أى حيوان ..

فزمت شفيتها قبل أن تدعهما تنفرجان عن بسمة مستترية ، على حين
تابعت حديثي قائلاً :

— إلّا أنا .. أنا يا سيدتي .. فحركتي طوال هذه السنوات لم تكن
إلى غاية . « لا تخلف ولا تلف » وإنما ينطبق علينا المثل « رب ساع
لقاعد » وبعد سنوات يعلم عددها الله سيختلف الورثة على كل شيء ..
إلا على لعنتي في التراب ..

قالت زوجتي :

— وماذا تقصد ؟

فأجبت في حزم :

— أقصد أنني سأستقيل من خدمة الحكومة وأسوى معاشي ،

وأجلس لأمسح عن وجهي العرق حتى تدركني المنية .. لا داعي
للتعب .. لا داعي له مطلقا ، فإن حركتي كانت بلا غاية .
ثم قمت محققا كأنما دب بيني وبينها خلاف ، حتى دخلت إلى حجرة
نومي فأكملت لبس ثيائي وعلقت عصاي في ذراعي ، وألقيت على
زوجتي تحية مختصرة وأنا في طريقي إلى الخارج .
وكانت في مكانها إلى المائدة كأنها لم تقو على النهوض . ثم صفقت
الباب خلفي وهبطت الدرج ، ولم تخف عني حرارة أفكاري إلا بعد أن
صافح وجهي هواء الشارع .

* * *

ومنذ ذلك الحين أحسست كأن شيئا ما يعتمل في نفس زوجتي ،
وكأنما قامت بيني وبينها خصومة . كانت خصومة باردة أسلحتها معنوية
صرف ، وذلك شيء لا يدركه إلا الأزواج وحدهم بعد التجربة
الطويلة . فيستطيع الزوج أن يشم جو البيت بعد أن يعبر عتبة ، فيعرف
أن خلافا ثار أو أنه سوف يثور .. أو يحس كأن راية ييضاء غير مرئية
ترفرف في نواحي السكن ، وقد يحس العكس فيشم رائحة الخطر كما يشم
البحار رائحة العاصفة .

إننا لم نعقب نسلا ولا يعلم إلا الله لماذا لم نعقب نسلا .. وتضارب
الأطباء في تشخيص الحالة .. وكنت أصدق من كان رأيه في صف
رجولتي ، وكانت تصدق من كان رأيه في صف أنوثتها . وتشعب بنا
الحديث مرة حول النسل ، حتى زل لساني فقصصت عليها قصة زوجين
عانيا نفس مشكلتنا عشر سنوات ثم افترقا .. ثم تزوج الرجل من غيرها
وتزوجت هي من غيره فحدث شيء عجيب تدركه أنت الآن ، وهو أن

كلا منهما قد أنجب ..

وثارت الزوبعة في بيتي بعد أن أتممت هذه القصة ، وكانت ماطرة ذات صراخ ودموع كلفتني جهدا كبيرا حتى استطعت أن أعيد كل شيء إلى ما كان عليه .

لكن الأمور عادت فتعقدت مرة أخرى .. تعقدت في نفسي بشكل أظنه لا يقبل الحل . وكان ذلك في الليلة التي سهرتها أفحص مرافقي حتى اطمأنت إلى دخلي ، والتي أصبح صباحها فأعلنت قرارى لزواجى قبل أن تقوم عن الطعام .

وتعقدت الأمور لأننى كنت جالسا على أحد المشارب وأمامى « شوب » من البيرة ، وشرد بخاطرى فبدأت أرقب المارين فإذا بكل سائر بحث خطاه إلى غاية مقصودة ، حتى المتسكعين والمتسكعات أصبح بطؤهم غاية .. وذكرنى الشارع الممتد أمامى بحياتنا وغاياتنا ، فأخذت أفحص أمرى فلم أجد لى غاية .. كنت أكدح من أجل ناس لا يذكرون بيتى وأنا حى ، فكيف يذكرون قبرى وأنا ميت ؟ ولا يزورونى وأنا سليم فكيف يعودوننى وأنا مريض ؟ .. وأحسست حرارة الشوق إلى النسل حتى هممت أن أقبل كل طفل يمر بى . ثم استعدت حلقات هذه المشكلة بينى وبين زوجتى .. ثم اتخذت قرارا فحواه أنه لا داعى للتعب .. نعم لا داعى له ..

وأعلنت هذا القرار قبل أن تقوم عن مائدة الفطور ، فكأننى أعلنت حربا قبل أن أعلن التعبئة أو أبنى الخياطى .

وكان فى زوجتى بقية شباب تنبئ عن ماض عريق . وعلى الرغم من أنها لا تملك اليوم إلا هذه « البقية » فقد أفهمتى بتصرفات صامته أن

« البقية » أحلى بكثير من رأس مال جمال كامل تتحلى به بعض الفتيات .
وأنت تعلم أن القاعدة المقررة في الزواج أن تكون المرأة أصغر من
الرجل .. يتزوجان ثم يسيران معا في طريق العشرة ، ويلعب الحظ دوره
فيصيب المرأة ما يجعلها تفقد حيويتها قبل زوجها ، أو يصيب الرجل
ما يجعله يفقد حيويته قبل زوجته . وكثيرا ما يقع الأخير .. وقد كنت أنا
من هذا الكثير .

وكان برنامجي اليومي بعد اعتزالي للخدمة هو أن أخرج في الضحى
متأبطا صحف الصباح ومجلة أو مجلتين بينهما كتاب ، وأخذ سمتى إلى
المشرب الذى تعودت أن أتردد عليه فأقرأ أو أراقب الطريق . حتى إذا
حان وقت الغداء عدت فتناولت طعامى ثم أويت مباشرة إلى الفراش ،
حتى إذا دخل الليل خرجت مرة أخرى إلى مقهى غير مقهى الصباح ،
فالتقى ببعض أصدقاء أقطع معهم شطرا من الليل في السمر أو لعب النرد ،
فإذا ما سمعت عدت أدراجى إلى البيت لأنام .

قلما تتخلف هذه الحاجات إلا إذا تخللها طارئ كالذهاب إلى السينما
أو التعزية في فقيد أو شهود إحدى حفلات الزواج ، ولا شيء بعد هذا .
وإذا عدت إلى البيت بعد انقضاء الهزيع الأول أضعت بقية ليلى في مخدعى
على الوجه الذى أشتهيه .

غير أن الجزء الأخير من برنامجي تطرق إليه الخلل بشكل مفرع .
قلما كنت أجدها نائمة عند عودتى ، بل كنت أرى فيها امرأة تنتظر
عودة الغائب .. كل شيء في وجهها ينادى معلنا أنه ليس لنا من لذة الدنيا
إلا طيب العشرة .. « لا خلف ولا تلف » ولا صراخ صغير
ولا مطالب تعكر علينا هدوء الليل .. وكان طبعيا أن أستجيب لها ،

معاندا إن ظننت بها الظنون ، أو عاطفا إن اعتبرتها امرأة تحاول أن تحتفظ
برجل لا يربطه بها إلا هذه العلاقة .

لكننى شعرت على مر الزمن بشيء يكاد يكون سوءنية فزحزحتها إلى
منطقة أخرى من قلبى .. إلى حيث يقيم الورثة المتربصون الذين لم يتفقوا
على شيء إلا على لعنتى فى التراب ..

واتخذت المسألة وضعا عكسيا فى الليالى التالية بعد عودتى إلى البيت ،
وطال علينا المدى ونحن متهاجران حتى ناقشنا الموضوع ذات ليلة فثارت
العاصفة مرة أخرى ، وكانت ذات صراخ ودموع كلفتنى كثيرا حتى
استطعت أن أعيد كل شيء إلى ما كان عليه ..

وهكذا مشيت سفيتتنا تتخبط ، لا تسوقها ريح رخاء ، فإما ركود
وإما عواصف . لكن الذى عزانى عن بلائى أننى كنت قليل المكث فى
البيت ، فما كنت أقيم فيه إلا نائما ، ثم انتهت فجأة على حادث غير
متوقع ..

كانت صحتها تسوء يوما بعد يوم ، والطعام لا يستقر فى جوفها إلا
قليلا حتى بدت شاحبة هزيلة غائرة العينين ، وعزوت هذا أول الأمر إلى
طول تفكيرها فى سوء معاملتى لها بالنسبة لماض طويل جميل ، لكنها قالت
لى وعلى شفتيها ابتسامة غامضة :

— يمكن .

— يمكن إيه ؟

— يمكن يكون ده بشارير الحمل .

فتنهدت فى ارتياح وقمت فقبلتها . ثم تنهدت فى غير ارتياح كأنما أنفى
على صدرى حمل ثقيل . ولم أترث حتى تناوشنى الأفكار وتهشنى

الوساوس ، فأكملت لبس ثيائي وعلقت عصاي في ذراعى وأخذت
طريقي إلى المشرب حيث جلست أراقب الطريق وأمامي « شوب » من
البيرة .

* * *

في حياتنا مناطق يجب أن تبقى في ظلام . والويل كل الويل لمن يسلط
عليها الأضواء بيديه أو لمن ترسل له المقادير شعاعا من الخارج يضيئها على
الرغم منه ..

وقد ألفت المقادير شعاعا على حياة زوجتي لكنه ضئيل ، لم يجعلها في
نور ولم يتركها في ظلام .. وهناك حوادث عادية تصبح مؤلمة إذا تخلفت
عن أوقاتها المعلومة ، كعودة الزوج في غير أوقات العودة ، وكحمل
زوجتي في هذه الفترة .. فأصبح ماضئها المستقيم عاجزا كل العجز عن أن
يقنعني بسلامة الموقف .. ولو تقدم هذا الحادث عشر سنوات مع حاضر
لها غير مستقيم ما ركبتني هذه الأوهام .. فلماذا ؟ .. انظر كيف تتلاعب
بنا الحياة ..

غير أن هذا كله لم يقلل من شوقي إلى رؤية المولود حتى آن الأوان
فنظرت إلى وجهه الصغير الذى لا يزال محتقنا من آثار الولادة ، وجعلت
أفتش فيه عن شيء من الغريب أننى كنت أجده ثم أفقده ، ثم أجده ثم أفقده
على التوالي . كانت ملاهى تبدو فيه وتغيب كما تفر من بين الأنامل حبات
من الزئبق .

ثم اطمأنت إلى الحياة بعد ذلك شيئا ما لأننى ألفت أن أراه في فراشي
وأصبحت فترات الشك قصيرة المدى ، خصوصا بعد أن صارت أمه
تحرص على إسعادى وراحتى ، وبعد أن ربطت الألفة بينى وبين الصغير

برباط تحسن شده يد الإنسانية لأنها تحافظ على نفسها بنفسها .
وبدا يناغيني ويناغها ، وبدأت هى تلفت نظرى إلى ملاحى فى
قسمات وجهه : « انظر .. نفس الذقن المدبب .. يا حلاوة .. وكان
والنبي شوف العينين .. عينيك تمام .. »
وتنكب عليه فتوسعه ضما وتقيلا . أما إحساسى أنا شخصا فقد كان
على اضطرابه كالصورة التى تلتقطها يد مرتعشة .
كان حنوى عليه ممزوجا بعطف وشفقة كالتى نحسها نحو الضعيف أو
الغريب ، لكنه على الرغم من كل شىء ملأ علينا فراغ بيتنا ، بصحته
وسقمه ومناغاته وصمته وخوفنا عليه من تغير الفصول . ثم إنه أنسانى
الورثة إلى حد بعيد فصرت أتردد على المشرب والمقهى بانتظام ورتابة
يشبهان عمل الآلات .

كانت تحبه كثيرا .. كأنما أحبته بكل قلوب الأمهات .
أحبه ابننا .. وحاميا .. وكاسبا ، لأنه سيرث مال أبيه . أحبته فيه
هذا جميعه فكانت تنسى نفسها وهى تناغيه حتى تنقلب وكأنها عذراء
شاعرة تناجى حبيبها تحت ضوء القمر .
ودخلت عليها مخدعها ذات صباح فرأيتها تقبله وتحتضنه وتناغيه
قائلة له : « آه .. يا جميل .. يا شبه حبيبي » .. وهى تقلب رأسها ذات
اليمن وذات الشمال فى حركة ساكرة .

رجعت بظهري خارجا من الغرفة دون أن تشعر بى ، كأن هذه
الكلمات قد لطمتنى على خدى . وارتديت ملابسى وخرجت وظل أثر
ذاك الكلام مرافقا لى طول النهار حتى عدت فى المساء فسألت عن الوليد
النائم ، ودخلت عليه وحدى لأفحص ملامحه .. مسكين ..!

وطبيعى أننى لم أصل إلى نتيجة . وتنبئت أن أملك قلبى لأصب له فيه
الحب على الرغم من أى شىء .. لأرتاح ..
وثارت الكلمة فى نفسى عدة مرات ونحن فى ظلام المخدع أنا وهى ،
ففعلت فى جسمى ما يفعله الماء وإن فعلت فى القلب أشد من حريق
النار . وهممت أن أشرح لها وساوسى وأسألها عن ذلك الحبيب فأيقنت
أنها ستجيب مؤكدة أنها تعينى ، ثم .. ثم تنور العاصفة . فآثرت أن أغمد
أحشائى على السكين .. وأسكت ..

وبلغ الطفل عامين وأجاد كلمة «بابا» وكان يقولها مخلصا متأنقا جادا .
وكنيت أتقبلها منه بشك كثير .. كان خصما بريئا ، ضعيفا ، غافلا ،
لا يشعر أن بينى وبينه ظل خصومة ، وكثيرا ما حز هذا فى نفسى . لكننى
كنت أعالج ألمى فى صمت عميق راجيا أن يبرأ قبل أن يحس به أحد .
وكثيرا ما كان يقاسمنى الشيكولاتة التى تقدم إليه . يقضم منها قضمة
ثم يدسها فى فمى فأخذ منها بمقدم أسناتى وأنا أفحص وجهه الباسم ،
وأرثى للإنسانية ذات المشاكل ، ولعالمنا المعقد المثقل بالقوانين المهرق
بالمسئوليات .

ثم أصبح بارعا — دون أن يشعر — فى استنباط ودى كلما أوشك أن
يفيض . وكنيت أقبله فى ساعات الطمأنينة قبلات عميقة طويلة ممدودة
كأنها كفارة عن هواجس النفس ، حتى بلغ أربعة أعوام من العمر ..
فاستوت ملاحه بريئة جميلة تحفز الشفاه على أن تلتصقا . ويقس الورثة
فانصرفوا إلى شئونهم جادين فلم يعودوا يرقبون شبابيك بيوتى وهم مارون
متسائلين فى ضمائرهم عن اليوم الموعود ..

وفى إحدى ليالى مايو استيقظ من نومه يطلب ماء .. وصرخت أمه
وهى تقدم إليه الكوب لأنها أحست حرارة جسمه . لكننى هونت عليها
الأمر ، فكل الأطفال يمرضون .. وكلهم يبرءون .. لا تجزعى
يا سيدتى ..

لكن الطبيب أشار بنقله إلى أحد المستشفيات لأن الحمى تحتاج إلى
تمريض دقيق . وامثلنا .. وانتقلت أمه معه وكانت فى ذلك المساء شعنا
غبراء لم يمسس شعرها ماء ولا مشط حتى بدا جافا كأنه خيوط الليف ،
وحتى بدت هى كأنها أحوج منه إلى طبيب .
وأقمت فى البيت وحدى ..

كنت أقضى معهما بياض النهار وجزءا من الليل ثم أعود . وأناحت لى
هذه الحادثة أن أراقب الفراشين الخاليين كل ليلة فى حجرة الأم وأدمن
إليهما النظر كأنتى أفحص شيئا . ويطول لى الأمر حتى أفيق على
دموعى .. إننى حائر ..

* * *

أصدق الأحكام أو أكثرها اعتدالا هى التى نصدرها على خصومنا
وهم بعيدون عنا ، ومن أجل هذا كان الموت ملغى الخصومات ، إلا عند
كل خسيس .

وأحببت الصغير وتمنيت لو فديته بكل شيء .. ليأخذ الورثة البيتين
وليبيعه لنا الله .. وأنا مستعد أن أكدح من جديد من أجله حتى آخر
العمر .. وأن أتنازل عن ملذاتى جميعا لأوفر ما يكفل له السعادة .
وقضيت ليلتى فى فراش الأم فى الحجرة الخالية ، وتركت النور مشعلا
لأنظر إلى فراشه كلما تيقظت .. لكن الأحلام الكريهة تراجمت على حتى

إذا رأيت وجه الصباح تنفست كأنى نجوت من الغرق . وقدمت لى الخادمة فنجانا من القهوة لم يصحبه طعام ولا شراب آخر قبل أن ألبس ثيابى وأعلق العصا فى ذراعى آخذاً طريقى إلى المستشفى ..

وقضيت هناك بياض اليوم وجزءا من سواد الليل .. كانت هناك معركة .. الحالة متحرجة جدا . كان فى حالة طيبة ساعة العصر ، فلما زحف الظلام زحفت عليه المخاطر . غيبوبة ونبض ضئيل كدقات الساعة قبل أن يفرغ الزمبلك . وكنا نعجب كيف أن الناس لا يحسون فداحة أمرنا خصوصا الأطباء والأمهات اللاتي يزغردن وهن خارجات بأبنائهن .

أما هى فقد كانت بعيدة عنا .. كانت مشغولة بشعرها وثوبها وجلدها تمزق منه ما استطاعت . وكان دعاؤها قليلا كأنها يمتس من السماء . أما أنا فقد كنت أتملى الحياة الذابلة والملاح المدبرة التى تلم أذيالها قبل أن تفر من على وجهه .. وجه ابنى ..

أستطيع أن أقول : ابنى .. لأننى رأيت قسمائى واضحة فيه وهو يموت .. قد يكون ذلك خيالا ولكننى لن أستطيع أن أفر من آثاره . ولثمت خديهِ الغائرين اللذين كأنما ضغطا بين سبابة وإيهام فتخلفت فيهما حفرتان من أثر الأصابع . ثم سال الدمع غلى وجهى .

أنا اليوم أستنجد بالشك القديم لأصنع منه ترياقا لجراحي ، ولكننى دفنت الشك معه فى لحده . وأنا اليوم لا أعبأ بالورثة .. ولا أنكر فى غاية السعى على الأرض كما كنت أنكر فى الحياة كلها .. أصبحت لا تستحق .. وحتى التفكير نفسه أصبحت لا أركن إليه فعمدت إلى الفرار منه . لذلك غيرت برنامجى اليوم فهجرت المشرب والمقهى

والأصدقاء ، فلا سمر ولا نقاش ولا لعب . لا أريد أن أفكر .. ولا أن
أذكر أخطائي ..

نعم أخطائي .. لأن أخطاءنا هي أكثر الحقائق فاعلية في حياتنا . أما
الصواب فإننا ننعم بشمراته فتلهينا ثمراته عنه .

الراية البيضاء

كانت منهمكة في قراءة قصة بوليسية وهي متهاكة على أحد المقاعد ،
جامعة فوق ساقها أذيال روب حريري هادئ اللون في لون النيبذ .
ولم يقطع عليها قراءتها شيء بتاتا في ذلك الضحى ، حتى ابنها الصغير
ذو الستة شهور كان نائما ، وطال استغراقه في النوم هذا الصباح كأنما
ليتيح لها فرصة .

وكانت تكف عن القراءة بين حين وحين لتأمل ما قرأت بمعظم
شعورها ، تاركة بقاياها عالقة بلوحة زيتية معلقة على الحائط تمثل صيادا
يحمل شبكة .

وما لبثت أن وضعت الكتاب على منضدة قريبة من يدها وفتحت عينها
في دهشة ، وشهقت وحدها في تعجب من النهاية التي صب فيها مجرى
الحوادث ، ثم ضحكت ثم سرحت تتساءل :
— ولماذا يسلم نفسه ١٩ هذا غريب .

كان رجال الشرطة يضيقون الخناق على رجل تدل القرائن على أنه
القاتل ، خصوصا لأن مصلحة تعود عليه من هذه الجريمة لأنه سيرث .
وفجأة يتقدم إلى رجال الشرطة شاب في مقتبل العمر تبدو عليه هيئة
الصناع فيعترف بأنه القاتل . وقد قتل ابن المريكز ووارثه الوحيد انتقاما
للشرف . لأن ابن المريكز غرر بأخته حين لقيها يوما عند مدخل الغابة
وسلبها عرضها ..

ثم توقفت أفكارها .. وأخذت نظراتها تجول في قطع الأثاث من حولها

(حلم آخر الليل)

حتى وقعت عينها على الصورة الزيتية المعلقة على الحائط .. صورة الصياد والشبكة ، فذكرت شيئا .

ذكرت أنها كانت راجعة من الخارج عصر يوم من الأيام وخلفها خادمتها تحمل وليدها الصغير ، وكانت هذه الزوجة في زينة من شبابها وثيابها ، فإذا بوجه مستدير أبيض لشاب طويل لامع الشعر يلتقى بها في مرور عابر يلقي إليها بابتسامة ثم يمضى . لكنها ابتسامة غريبة قوية جريئة كأنها مبنية على أساس ، كأنها ليست الأولى ، كأنها ولدت بعد تبادل الابتسامات عدة مرات ، وهذا ما لم يحدث طبعاً .

وألقت الزوجة على خادمتها نظرة من فوق كتفها وهى سائرة لتعرف إن كانت لاحظت شيئا ، فوجدتها مائلة العنق نحو شيء تتأمله ..

وأخذها من بين التأملات والصور بكاء الطفل .. بكاء اليقظة من النوم . واهتز قلبها بعنف لهذا البكاء الغريزي المتوارث الذى يطلب الأطفال به أمهاتهم فى أول أعمارهم ويطلبون به الغذاء . ووضعته فى حجرها وأعطته ثديها ونظرت إلى بياض الاثنين .

ثم حانت منها التفاتة إلى الشباك المفتوح فى حجرتها ، ومن خلاله رأت سطح البيت المقابل والغرفة القائمة فى إحدى الزوايا والشباك المفتوح فيها كذلك . ومن خلال الشباك الثانى رأت وجهها .. كان هو الوجه المستدير الأبيض الذى ألقى إليها بابتسامة عصر يوم .

وأحسّت أنه يتأملها بإصرار وعلى مهل وفى رزانة ، وكأنما كان على شفثيه عبر الحارة تلك البسمة التى كأنها بنيت على أساس شيء خطير جدا .. لا يشك أحد حين يراه يفعل هكذا أن بينه وبينها علاقة .

« يا له من رقيق .. أعوذ بالله !! »

هكذا قالت في نفسها ، ثم قامت وأسدت ستارا .

كان ذلك أول عهدا بهذا الوجه المستدير .. المقابل لها .
لا شيء يوصف به إلا أنه « رقيق » ، أما الاستدارة والبياض
والابتسامة الثابتة على الشفتين كأنها بنيت على أساس ، فذلك لا يهم .
على أن عهدا بالحجرة المقابلة أنها كانت خالية ، غير صالحة
للسكنى ، مهملة نصف خراب .. لكن الزوجة حين غابت عن القاهرة
لمدة شهر وعادت لاحظت أن يد العمران قد امتدت إليها وجددتها ، لأن
الحرب كانت تهدم في مكان وتبنى في مكان .

ثم لمع فيها النور ذات مساء وانفتح عن النافذة شيش متهاك قديم ،
وأطل منه وجه امرأة يبدو عليها أنها زوجة فقيرة إن لم تكن خادما . لكن
السيدة وجدت نفسها بعد ذلك مشغولة بأن تربط بين صاحب الوجه
المستدير المترف وبين وجه هذه المرأة .. ولم تصل إلى نتيجة فنسيت الموضوع .
ثم حدث ما حدث من قبل ..

انهمكت ذات يوم في القراءة وهي متهاكة على أحد المقاعد ، والطفل
نائم وصورة الصياد أمام عينيها ، وحول ساقها أذيال روب هادئ اللون في
لون النبيذ . ووقعت عيناها على الصورة فتذكرت أشياء متتابعة :
قتل ابن المركيز . القبض على شاب . شاب آخر يسلم نفسه . الوجه
المستدير . الغرفة المهملة ..

فقالت في نفسها : ما هذا ؟ لماذا يسلم الناس أنفسهم ؟
ولما كنا دائما نوازن بين شعورنا وشعور غيرنا خصوصا في التشابه منها ، فقد
أخذت الزوجة توازن بين وجه ووجه ، وابتسامة وابتسامة ، وشعر

وشعر . تلك لرجل يرقد إلى جنبها كل ليلة وتلك لرجل لا تعرف عنه إلا المظاهر .

وبكى الطفل مرة أو مرتين في الفراش داخل الحجرة ، كأنه حلم أن الثدى خطف منه ، ثم نام ثانيا واستغرقت أمه في الفكرة . ولم تدرك من الوقت مر عليها ؟ وكل شيء من حولها هادئ كأنه يعاونها على ما كانت فيه .. حتى دق جرس الباب .

كانت الخادمة في الخارج فقامت هي وفتحت الباب ، لكنها ردت ثانيا بحركة لا دخل للإرادة فيها ، وكل يد على مصراع . ولم تتكلم ولم يتكلم الواقف بل كان يبعث إليها بالابتسامة الثابتة المألوفة الواقفة على الشفتين كأنها مبنية على أساس . والوقت ضحى واليوم يوم عمل والرجال ليسوا في البيوت ، فماذا يريد هذا الشاب ؟ وفجأة سمعته يقول : « عداد النور من فضلك » . ففطنت إلى أوراق تحت إبطه فأخلت له الطريق إلى حيث نظر بقوامه الفارع إلى الجهاز الأسود المثبت في الركن . وألقى على وجهها المحمر وهو في طريقه إلى الباب نظرة تقول كلاما .. وانحنى بالتحية ثم استقام فوجدت على شفتيه نفس الابتسامة .

* * *

قالت تعاتب نفسها بعد انصرافه :

— أليس من الجائز أن تكون « لعبة » من نوع سخيف ومن فكر سخيف ؟ لماذا لم أسأله إثبات شخصيته ؟ لماذا ؟

ثم رجعت وناقشت هذه الفكرة :

وإذا طلبت منه تحقيق شخصيته فمعنى ذلك أنني أشك فيه .. ومعنى ذلك أنني منتبهة إليه .. ثم هزت كتفها .

وعلق بصرها بالصياد والشبكة ، وزرقة الماء تحت قدميه .. والأفق الغامض .. البعيد .. المجهول .. والقصة البوليسية . وابن المركيز . والقاتل الذى سلّم نفسه .. حتى بكى الطفل !..

ولما جاء المساء وجدت نفسها تراقب شباكه وهى جالسة فى النور . كانت فى الحقيقة لا تحس شيئا ولا تريد شيئا . لكن جوارحنا كثيرا ما تؤدى حركات تنكرها عقولنا كما تنظر العينان إلى ما لا نرضاه فنغطيها بأكفنا !

ورأته يتخايل عند الشباك . يقرب ثم يغيب . ثم رأته يجر كرسيه ويجلس ليحس طراوة الليل ، فقامت من فورها وأسدلت ستارا ! ثم رجعت فجلست ، ثم قامت فأطفأت النور ، ثم عادت فجلست على السرير وظلت تراقب .

زوجها يرقد فى حجرة أخرى بعد مضى علم على زواجهما ، لأنه لا يطيق أن يسمع فى الليل صرخة طفل .

على أن ذلك خارج عن الموضوع .. وفى اللحظة التى انطفأ فيها نور حجرتها غاب الجالس جنب الشباك دقيقة ثم رجع .. وبدأ نوره لعينيهما أكثر سطوعا لأنها فى الظلام . ثم أطفأ مصباحه .

وهمت أن تستلقى فى الفراش لكن شيئا استوقف نظرها . رأت نور عود من الكبريت يلمع على مقربة من وجهه فظنت أنه يشعل سيجارة ، لكنها رأته يشعل شمعة ويضعها على منضدة تستطيع أن تراها ويجلس هو إلى جوار المنضدة .

عرفت أن النور قد انقطع فى الحى فقامت لتجرب مصباحها وتعد

عدتها لمفاجآت الطفل ، لكنها فوجئت بأن النور غير مقطوع .
ورأته ينظر نحو غرفتها قبل أن تطفئ نورها ثانيا ، والشمعة أمامه وهو
مستغرق في الضحك لأنه أفلقها . وحين أوت إلى فراشها تذكرت أحد
جيرانها القدامى من التلاميذ ، كان يعكس أشعة الشمس على غرفتها بمرآة
صغيرة .

ورقدت منصرفة عما يفعل ، لكنها عادت فجلست في الفراش لترى
ماذا يفعل .

ومن هب الشمعة الموقدة رأته يشعل شمعة أخرى وعيناه تنظران نحوها
في الظلمة وعلى فمه ابتسامة . ثم نصب الثانية على المنضدة إلى جانب
الأولى فرأت هب شمعتين .

قالت تسأل نفسها :

— وما مغزى هذا ؟

وبعد ثوان رفع الشمعة الأولى وأدنى لها من وجهه كأنه يتأمله ، ثم
نفخها فأطفأها ، ثم أمالها على المشتعلة فأشعلها منها ثم ثبتها في مكانها من
جديد .. ونظر نحو شباكها ..

كانت تقول في نفسها :

— وما معنى هذا ؟

وبعد ثوان رفع الشمعة وأدنى لها من وجهه ثم أطفأها ، ثم أشعلها
وثبتها في مكانها كما فعل بأختها من قبل . ونظر نحو الشباك وهو يبتسم .
وكانت لا تزال تقول في نفسها :

— وما مغزى هذا ؟

وحين استغرقت في النوم كانت تتراقص أمام بصرها في الظلام مرآة في

أشعة الشمس وشمعة تشعل من شمعة .
لكن ذلك حال يطول ولا بد من وضع حد له . لا بد أن نختاط في
يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون وإلا كنا مسئولين عما يحدث .
كانت تعرف هذا جيدا وكانت شديدة الإيمان به .
وترقبت المساء التالى لترى ماذا سيحدث . كانت النافذة مقفلة
والحجرة ساكنة ولا شئ إلا الظلام . وأحست كأنها ترقبه فعللت ذلك
بأننا قد نرقب ما نكره . ولمع النور من وراء الشيش المتباعد الوحدات
المتكسر بعض أجزائه ، ثم انفتحت المصاريع والوقت متأخر . وجلس إلى
المنضدة فأكل وهو يتلفت كأنه شارد أو كأنه لم يتخلص من بقايا فكرة ،
أو كأن الظلام الخيم على غرفة جارته لم يشجعه أن يفعل شيئا .
وخطر ببالها أنه لا يعرف إذا ما كانت يقظة أو نائمة ، فقامت وأشعلت
النور وذهبت إلى دورة المياه ثم عادت ، ثم أطفأته وجلست فى الفراش .
وبعد مدة بدأ يشعل شمعة من شمعة لاوياء عنقه نحو الشباك . وصممت على
أن تدعو زوجها ليرى هذا ، فخرجت من مخدعها قاصدة إليه حتى نسيت أن
تلبس فى رجلها شيئا ، وحين فتحت عليه بابه استيقظ هاتفا :

— سميرة !

— نعم . أنا . آسفة جدا . حسبتك تناديني فقد سمعت دقة على
الحائط الذى يفصل بين حجرتينا .

— بنت حلال تعالى ..

وانقضت الليلة بينهما على الوجه المألوف ، ومرت أيام كانت أشبه
بليالى الهدنة مشحونة بالقلق والملل والتطلع .. حتى كان ضحى يوم من
الأيام .

والطفل نائم ، والخادمة فى مستشفى الأنكلستوما ، والسيدة منهمكة فى القراءة متهاككة على المقعد وعلى ساقها أذيات روب هادئ اللون ، وفى تجاهها صورة الصياد ...

ودق الجرس دقة عميقة فتملت أطرافها ، وألقت نظرة على الصياد والشبكة ، والبحر والأفق الغامض قبل أن تفتح الباب . وكان قد مضى شهر تماما ورجعت الأيام من جديد فمثل أمامها بوجهه المستدير وابتسامته الثابتة على شفثيه كأنها مبنية على أساس .. قديم .. قديم جدا !! وكان فى باطنها أشياء كثيرة وهى تخلى له الطريق ليذهب إلى العداد . الجهاز الأسود القائم ليحصى عليهم خيوط النور . وجعل يدندن كما يفعل الصراف وهو يجمع الأرقام ، ثم قال لها :

— ياه .. ستين كيلو ، لازم بتسهروا كثير !!
فلم ترد . وكانت تتلفت كأنها تبحث عن أحد ولكن الطمأنينة التى ظلمت وجهه خففت قلقها . ثم طلب كوبا من الماء — إن كانت تسمح — فأشارت إلى الصنبور ثم قالت أنحرا له وهو خارج بصوت فيه رعشة الانفعال :

— تسمح ؟

— نعم !

— تسمح تقول لى .. ما معنى هذه الأعمال ؟
فأجاب فى تجاهل :

— إننى أؤدى وظيفتى يا سيدتى !

فنظرت وكأنها تبارزه واستطردت :

— يا شيخ !؟ وإشعال شمعة من شمعة وظيفة !؟

فقال مداعبا :

— أأنت موظف في شركة النور ؟

— ...

وظلّت تنظر إليه في شroud وغضب وعلى الخدين حمرة كأنها تفاح ، حتى فارق البسطة وأخذ يهبط درجات السلم .
وصممت على أن تقول لزوجها بعد الغداء مباشرة .. لا بدّ من يدتمد إلى الذين يزلون حتى ينهضوا من جديد .

واستغرقتهما مشكلة ديوانية وهما على الغداء كان الزوج يقصها عليها .. ثم أوى إلى غرفته بعد ذلك مباشرة ونامت هي كما نام ، وقامت وقت العصر بنفس هادئة نوعا ولكنها قررت أن تعمل شيئا آخر .

وفي صباح اليوم التالى كانت غرفة المائدة مكان غرفة نومها وغرفة نومها مكان غرفة المائدة . فبعدت بذلك عن شباكه . إنها تعرف تماما ما ينبغي أن تعمل .. لا بد أن نحتاط في يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون وإلا كنا مسئولين عما يحدث !!

وفي ظلمة إحدى الليالى التالية بكى الطفل فأعطته ثديها وهو في حضنها ، ورضع حتى نام فسحبته من فمه ثم قامت إلى دورة المياه . ومن هناك وجدت نفسها مدفوعة إلى غرفة المائدة وفتحت شباكها برفق وهدوء بيد مضطربة وقلب خافق .. تماما كأنها تسرق أو تفتح باب مخدع غريب على رجل نائم .

ووقع بصرها على الشباك ورأته إلى جواره . كان ساهرا يقرأ .. وكان يهز رأسه ويسكت ويشرد وينظر نحو بيتها كأنه يطلب منها أن تشاركه المعانى والأفكار .

وأحسست جرّ ششب على البلاط ! ووقع أقدام ثقيلة تنتقل في الصالة ، وكان زوجها في طريقه إلى دورة المياه هو الآخر . وحين وصل إلى غايته كانت هي تتسلل ببطء إلى حجرة نومها ، ولما دخلت مخدعها أحسست أنها عملت أمرا غير عادي .

وسألت زوجها ذات يوم عن علامات الحب ، وكان ذلك بمناسبة . كانا يستعيدان ما فات والتاريخ القديم منذ عامين أيام كانا خطيبين . وكثير من الحوادث يفقد رونقه بسرعة ويستحيل إلى شيء قديم . ولما سألته وهي تبتسم عن علامات الحب ، أجابها وكأنه مشغول يجد الأمور : « لقد نسينا هذه التفاهات » .

وحدث تغيير في المنزل مرة أخرى . تحولت حجرة المائدة إلى حجرة نوم وتحولت حجرة النوم إلى حجرة مائدة ، وظهر لعينها شباكه من جديد كأنه منارة .

وبوغت حين رأى ما حدث ، وأحضر من فوره الشمعتين وجعل يشعل .. كان يخيل إليها أنه سيأكل اللهب حين يذئ الشمعة من فمه ليطفئها ، فتذكرت أن هناك ناسا يأكلون اللهب ويلبسون النار ويسكنون جهنم ، وهم مع ذلك يحسون بالنشوة !

واسترخت أهدابها فاستغرقت في النوم ، وكانت تتعایل أمام بصرها في الظلام مرآة في أشعة الشمس وشمعة تشعل من شمعة .

ولقيها في الطريق فسار إلى جوارها يبتسم في صمت ، فقالت له :
— ماذا تريد مني ؟

ولم يكن شرودها غاضبا وإن كان على الحدين حمرة كأنها تفصاح . فأجابها بلطافة :

— أنا أريد أن أسألك نفس السؤال .

فنظرت مستنكرة ما يقول ، فاستطرد بنفس اللطافة :

— إذن .. فليسأل كل منا صاحبه ماذا يريد صاحبه ؟

فلم ترد . فهمس :

— سؤال محير !

فأطرقت نحو الأرض .

فهمس : والجواب عن السؤال أكثر تعقداً وتحيزاً .

ثم سكت . وسمع كل منهما وقع الأقدام على الأرض ، والخادمة من ورائهما على بعد غير بعيد ، ثم قال :

— في الدنيا مساكين لا يعرفون ما يريدون ، وإن عرفوا عجزوا عن أن يفعلوا شيئاً .

فلم ترد فاستطرد :

— على أننا سنلتقى قريباً ..

فنظرت بعينين مفتوحتين فيهما فزع وقلق مغلفين بحب لا يفصح .

فهز رأسه وهو يحلق فيها ولم يتكلم . ثم قال بعد برهة :

— سنكشف عن العداد بعد يوم واحد .. وداعاً ..

لكنها لم ترد عليه . وقبل عودتها إلى البيت اشترت للخادمة جلباباً

ومنديلاً وقدمت إليها وقت الغداء قطعة كبيرة من اللحم .

ولم يبق إلا يوم واحد ، وكانت تنتظر . لم تكن مصممة على أمر . وفي

الليل الذي سيأتي بعده صبح ربما وقعت فيه حوادث كانت تحس كأن

جيشاً يزحف نحوها وهي وحيدة بلا سلاح ، وتمنت لو وجدت يداً تمتد

إليها بالمعونة .

وكانت تعلم أنه لا بد أن نختاط في يقظتنا لما قد يحدث ونحن نائمون .
لكن .. خلق من أجلنا الضعف !!

وخرج الرجل ، وذهبت الخادمة إلى مستشفى الأنكلستوما ،
وجلست هي حيث تعودت أن تجلس فوق بصرها على صورة الصياد
والشبكة ، والبحر ، والأفق الغامض فتذكرت ما فات ..

ودق الجرس فعملت أطرافها . لكنها فتحت لترى على الباب وجهه
المستدير وبسمته الثابتة على شفثيه . واتجه إلى العداد ثم عاد إليها وكانت
تلهث لا تتكلم والباب موصد وصورة قاتل ابن المركيز الذي سلم نفسه
دون أن يبحث عنه أحد ماثلة في ذهنها .. ولما احتواها بين ذراعيه وبادلته
القبل بعد برهة ، فهمت لماذا كان يشعل شمعة من شمعة !

وبعد أن ذهبت السكره ورأت نفسها وحدها ، انفجرت تبكى لأنها
رفعت الراية البيضاء في ذلك الضحى بيد خالية من الإرادة .

ولم يعد يقلقها بعد ذلك إلا سؤال كانت تلحّ على قلبها أن يجيبها عنه
بصراحة . هذا السؤال هو : « هل تستطيع أن تتراجع لتصبح امرأة
نصف شريفة ؟ » .

سقف من الزجاج

كانت عيادتي مزدحمة بالمرضى ، والوقت صيفا ، والدنيا حرا ، وميعاد الغداء قد فات ، وزوجتي في البيت تكلمني بالتليفون كل نصف ساعة لتسألني : « هل ستأخر كثيرا ؟ .. إن الطعام على المائدة ، ونحن بالانتظار » .

وكنت مرهقا في الواقع ، ووددت بيني وبين نفسي أن أحذف من عملي في هذا اليوم شيئا هو استماعي بنفس مطمئنة إلى ثرثرة المرضى الخارجة عن الموضوع .. الخارجة عن كسل الكبد وحموضة المعدة وتمدد الطحال ، ولكنني لا أستطيع ، لأن استماعي إلى مرضاي بكرم وابتسام كان من أهم أسباب نجاحي .

والمرضى « رجل يعترف » .. شخص يريد أن يتخفف من أوهام تزعج نفسه كما يتخفف المذنب من آلام تقلق روحه .. أما اليوم فقد كنت متعجلا جدا ، كنت أريد أن آكل وأنام كما يأكل الناس وينامون ، لكن حجرتي الانتظار في عيادتي كانتا عامرتين برجال وسيدات .

وأطل على الممرّض النوبى بوجهه المستطيل من فتحة الباب وقال :
« إن آخر سيدة في العيادة تريد أن تدخل يا دكتور » .
فأجبتته وأنا أدير قرص التليفون لأتصل بالبيت :

— من ؟

— ست منيرة ..

— دعها تدخل .

واعتدلت استعدادا للإجابات ، وزجرت معدتي لتسكت عني كما تنهر الأم ذات اللبن الشحيح طفلها الباكي بين ذراعيها وهي تعلم أنه جائع . ودخلت ست منيرة ، فطالعني من وجهها أول كل شيء كحل وضعته في أجفانها بلطف . وجلست على كرسي مواجه في رشاقة لا تتناسب مع عودها السمين . فبادرتها وأنا أستجمع أفكاري ويدي تعبت بخنجر من العاج تفتح به الرسائل :

— خيرا يا هاتم .. هل تشعرين بجديد ؟

— ألاحظ في هذه الأيام أني أصبحت كثيرة الأحلام .. وقد قرأت في كتاب يصدر ضمن سلسلة شهرية أن من الأحلام ما له علاقة ببعض أعضائنا ..

فضحككت ، وأحسست أن شيئا من الخجل مسح على وجهها الأسمر فأحاله إلى حمرة الفخار ، وتركها تخرج مروحة من حقيبة يدها ، واستدركت :

— لست أقصد أن أسخر من معلوماتك يا ست منيرة ، ولكن الذي يضحكني هو حرصك الشديد على الانتفاع بهذه المعلومات ، و...
— الكابوس يلاحقني طول الليل يا دكتور ، أشكال فظيعة أراها فأستيقظ وأنا ألهث ، وربما قضيت بعض أيامي متشائمة من رؤيا مرت بي في الليلة الماضية .. كل هذا من الكبد ..

وكان يجب أن أقول لها : نعم ، هذا صحيح « وإن كان غير مؤكد » ، إن الست منيرة مريضة بالكبد فعلا ، قلت لها هذا ثم استطردت وأنا أرمقها بعطف ولطف :

— على أننى أفضل أن يمضى المرء ليله نائما بأى شكل ، لأن النوم خير من الأرق . وهناك ناس يا سيدتى يجيئون فيقسمون لنا أنهم لم يغمضوا أعينهم طول الليل .

فقلت بتذلل وطريقة توحى أنها بدأت تفقد ثقتها فى :
— لكن يا دكتور .. أنا أتكلم عن الكبد يجعل كل شئ .. عاجل لى كبدى مادام هو الذى يسبب لى كل هذه المتاعب .

إننا نجد أنفسنا مضطرين فى بعض الظروف أن نلعب مع مرضانا بالورق ، لأن المريض « مستغيث » ، والطبيب « منقذ » ، والمستغيث لا يلمس لمنقذه عنذرا ، ولا يشك فى قدرته حتى ولو كان فطريا ، ولأن المريض متعلق بالنجاة التى تعميه عن كل ضعف فىنا .. ولو كان فطريا .. كنت أحاول أن ألعب بورقة جديدة ، فطرحتم مسألة « الأعصاب » جانبا ، لأنها « موضة » بدأت تشيع ، وشيوع « الموضة » معناه انتهاؤها ، فقلت للست منيرة غير صادق :

— اسمعى يا سيدتى ، فى وسع أى طبيب أن يصرف اهتمامك عن كبدك المريض إلى شئ آخر ، كأن يقول لك مثلا إن المسألة مسألة أعصاب ..

ففتحت عينيها فى إعجاب حتى ظهر بياضهما مستديرا حول الحدقة السوداء ، وجرى إشراق خفيف على وجهها الأسمر الذى يحمل إشارات خمسين عاما ، ثم همست وهى تطفىء سيجارتها فى الطقطوقة :
— صحيح ؟ .. إذن فأنا أعصابى سليمة .

— جدا .. كل السلامة .

فأجبتها :

— أنت مريضة ذكية ، ونحن نفرح دائما بالأذكاء من المرضى .
— لماذا ؟

— لماذا ؟ .. إذا كان القاتل الذكي من سوء حظ المحقق ، فإن المريض
الذكي من حسن حظ الطبيب ، هذا يضلل وهذا يهدي .
— ها . ها . ها .. هي . هي . هي ..
وهكذا ضحكنا معا ..

وأخذت وطأة الامتحان الثقيلة تخف عن جو الحجرة ، وبدأت
المريضة الملحة التي زارتني ستين مرة بين كشف واستشارة تتفاعل بما
سأفعل ، ولو أن حقيقة أمرها أنها تحمل في كبدها كسلا عاديا جدا يمشي
به كثير من الذين يأكلون السمن الساج . لكن ظروفها يجعلها الأطباء
والمرضى معا تضحك كثيرا من التوافه حتى تزجج الطرفين .
وكان لا بد أن أقول لها شيئا ، فقلت :

— هناك طريقة للعلاج تعطى نتائج سريعة ، لكنها .. « ومططت
شفتي » .. مضمونة . هل عندك فكرة عن شرب « المثلج » ؟ إنه
لا يطفئ الظمأ ، إنما نعالج .. نعالج .. كلمة العلاج نفسها تدل على أن
العمل بطيء ، ثم إننا نخاف النكسة .. النكسة العضوية يا سيدتي قد
تحدث نكسة نفسية عنيفة ، مرضانا الذين يبرأون تماما ثم يعودون
فيمرضون تماما ، يياسون . ولذلك فأنا حريص على أن أختار الطريق
الطبيعي حتى أصل بمريضى إلى الأرض اليابسة ..
ودق جرس التليفون ، وخيل إلى أنه غضبان ، فرددت على زوجتى
قائلا :

— بالهناء والشفاء ، أعمل إيه .. زبون والله ، والله العظيم .

وأقفلت السكة وعدت أستأنف عملي مع السيدة التي لا تشبع من القلق ، قالت :

— أنا أحس وأنا في عيادتك أن أعراض المرض تزول تماما ..
فأجبها وأنا أضحك :

— فوقنا شقة خالية ..

فأومأت بعينها المكحولة وهزت رأسها لتقول إن هناك فرقا بين الشقتين ، فقلت لها :

— شكرا ، وأنا تحت أمرك ، من واجبنا أن نجيب عن كل ما تسألون ، وسرني أن الحادثة بدأت تنهى نفسها ، وأخذت أقفل أدراج المكتب وتحركت هي في مقعدها .. فدق جرس التليفون .

قلت لحدثي وأنا واقف :

— الآن ؟ مستحيل ، وأنا أيضا في غاية التعب . عذرني .. وباسم الإنسانية أستمهلك حتى آكل .. أنا آلة فرغ منها الزيت .. اتفقنا إذن ، يحرسك الله .

وخرجت وهي من ورائي ، فرأيت العيادة ساكنة ، وضجيج الترام يأتي إلى آذاننا من بعد ونحن نجتاز الصالة ، والمرض النوبى الطويل نائم وهو جالس ، وهناك سيجارة نفحه بها أحد الزباين كانت تحترق وحدها على منضدة .

ثم أقفل من ورائنا الباب ..

فتحت لى الباب خادم صغيرة تلبس جلبابا من القطن كان أكبر من جسمها بكثير .

ومررت في مدخل يدل على الإهمال ، والصالة خالية ليس فيها فرش ،

فخمنت أنه مسكن لبعض طلبة المدارس .
ثم قادتنى البنية إلى الغرفة التى ينام فيها المريض . لم يكن بابها مستقلا بل
كان يفتح فى غرفة أخرى لم ألاحظ حيث اجتزتها شيئا فيها غير مكتب
عادى وعدة كراس . أما فراش المريض فكان أهم ما فيه أنه يدل على
الوحدة ..

برز معنى الوحدة لخطري حين رأيته متقدما فى السن ، شاب شعره
بنظام كأنه صبغ بالأبيض ، ولم أشم فى المكان رائحة « شريكة » ،
ولا أنفاس أطفال ، فبدأ البيت كأنه وجه يحمل عينا واحدة ، لتكن جميلة
ناعسة لكنها لا تسحر .

كان يبدو أنه يعالئ أزمة عامة لا يرجع سببها إلى شيء واحد ، فشاع
فيه الاضطراب جسما وروحا ، وكان أول ما صارحنى به حين انحنيت
أكشف عليه أن قال إنه خائف ، خائف من الموت .. فابتسمت وأنا
أزحزح الجلباب لأكشف على بطنه وأجبتة :

— لا تخف يا صديقى ، فإن الموت ليس من السهولة كما يظن
الناس .

فسأل وعيناه زائغتان :

— كيف يا سيدى ؟

فقلت وأنا أعد نبضاته :

— إن تسعة أشهر فى العادة كافية لأن تخلق طفلا يصلح لأن يعيش
ثمانين عاما .. وإن عشرين شهرا قد تكون غير كافية بالنسبة لمريض تنشب
فى جسمه معركة الحياة والموت .. الموت ليس سهلا .. دعنا من هذا ،
فليس فى موضوعنا .

ووصفت له دواء ، كان بعضه الطمأنينة .. وانصرفت .
ولاحظت وأنا خارج شيئا لم ألاحظه أثناء دخولي . كان هناك كلب
مشدود برباط من الجلد إلى مصراع الباب الثابت ، وكان في سيات
عميق .. راقدا على الأرض ورأسه بين رجليه .

* * *

وفي المساء ، بعد يومين دق جرس التليفون ، والوقت متأخر نوعا وأنا
على وشك أن أفرغ من المرضى ، ودلني المتكلم على شخصيته فعرفت أنه
أحد جيران المريض الذى عدته في البيت ، وألح على أن أسرع لأن
المسألة تبدو أنها خطيرة ..

وكنيت على بيّنة من الأمر فلم يزعمجنى هذا الحديث ، اللهم إلا إذا
كان هناك ما لم يدخل في حسابى . كانت الحالة تدلّ على أنه « يتحلل » ،
والتحلل محتاج حتما إلى زمن . وأول علامات التحلل أن كل عضو من
أعضائه الرئيسية بدأ يكّال ، وبمرور الزمن يذهب التناسق كأنما تتخاصم
الأعضاء فيدخل المريض في « الممر » المؤدى إلى الحالة الثانية .. عكس
الحياة ..

كان هناك جديد في الموضوع حقيقة ليلة زرته للمرة الثانية ، لأن
الكليتين كانتا قد أعلنتا العصيان فقلّ إفرازهما عن الطبيعى .
والشقة في الليل شديدة الكآبة ، لم يكن فيها نور .. لم يكن فيها أحد
يؤنس مرضه لا زوجة ولا أولاد ، فبدت الوحشة متراكبة كأنها ظلام
على سطح البحر . وإذا كنا نفزع من الموت مرة فإننا نفزع منه ألفا إذا
شعرنا أننا نموت في الظلام .
قلت له : لا بد من نقلك إلى مستشفى .

فأجاب في شبه هلع :

— اعمل معروف ، أنقذنى فقط .

ونحن كقواد المعارك نرى غروب الأعمار بكثرة ، لكننا في بعض الأحيان نرثى لبعض الموتى .

ولم أفارق الرجل الشيخ ولبثت حتى جاءت عربة لتنقله ، وخرجت آخر الخارجين ، وألقيت على المكان نظرة طويلة فرأيت حجرات خالية وأرضا متربة والخادمة الصبية في ثوبها القطنى الواسع على جسمها وهى تحمق في صمت ، وأخيرا .. أخيرا .. الكلب .

لم يبق بعد خروجنا في المكان سواه .. والصبية ، وطبعاً حين أغلق الباب خيم السكون ، ونام الكلب على الأرض في رباطه الجلدى ، ونامت الصبية في المطبخ على « شلتها » القديمة .

* * *

وكنت أقول لأحد المرضى المثقفين في هذا المساء :

— إن الطبيعة تناقشنا الحساب عن كل ما تمنحنا يا صديقى ، فإذا أعطينا شيئاً ولم نستفد به أخذته منا ، فنكون بالتالى قد نقصنا جزءاً . وضحكت ثم أمسكت القلم بيدى اليسرى لأبرهن له أننى عاجز عن الكتابة بها .. ثم عدنا فضحكنا .

وانصرف المريض ، وأطل على الممرض من فتحة الباب بوجهه النوى المستطيل وقال بلهجة فيها ملل : « ست منيرة يا دكتور .. » .

فهمست دون وعى :

— ست منيرة .. دعها تدخل ..

فدخلت ست منيرة .

كانت شاحبة في هذه الليلة حقا ، مجهدة حقا ، كأنها مشيت شوطا طويلا .

ونظرت إليها ولم أتكلم ، ومررت برهة انتظر كل منافيا كلام صاحبه حتى قلت :

— خيرا ؟ ..

فقالت وهي مطرقة :

— خيرا ، فقط كنت أشكو من كثرة الأحلام فأصبحت أشكو من قلة النوم .

فضحكت مداعبا لأخفف الحالة :

— يعنى لا نوم ولا أحلام ..

— بالضبط .

وكانت الكلمات التى قلتها للمريض السابق لا تزال عالقة بذهنى ، حاضرة على طرف لسانى كأنها بقية مشروب ، فقلت لها :

— اسمعى يا سيدتى .

— نعم .

— كم ولدا عندك ؟

— لماذا ؟

— لماذا ؟ .. لأنه من الطبيعى أن يكون للناس أولاد .

فاحمر وجهها الشاحب لأن قطار الزواج كان قد فاتها ، فأدبرت الحديث بسرعة .

— لم تنامى ليلة البارحة ، أليس كذلك ؟ .. ألا تذكرين شيئا غير عادى كان في نطاق البيت ؟

— مطلقا ، إلا إذا كان نباح الكلاب يقلق . فى الشقة التى فوقنا ظل
كلب يعوى طول الليل .

— وأين تسكنين ؟

فلما أجابت أجبتها :

— وبات الكلب يعوى لأن صاحبه حمل مريضا أمام عينيه .

فعمجت لعلمى ، ثم تذكرت أننى طيب .

ثم حضرتنى من جديد الكلمات العالقة بذهنى ، الباقية على طرف
لسانى كأنها بقية مشروب ، فقد كانت حياتها غير طبيعية وحياة جارها
الذى فوقها غير طبيعية كذلك ، كلاهما كان « فردا » .. لم يتزوج .

والطبيعة تناقشنا الحساب عن كل ما تمنحنا ، فإذا أعطتنا شيئا ولم
نستفد به أخذته منا ، فنكون بالتالى قد نقصنا جزءا .. أعنى أننا نمرض .
قلت للست منيرة :

— إذن فاستشيرى أحد أطباء الأعصاب .

— وأعود إليك ؟

— وعودى إلتى .

وانصرفت .

وأخذت أجمع حاجاتى قبل أن أغادر العيادة وفى ذهنى صورة سقف
من الزجاج يفصل بين هذين المريضين ليستطيع كل أن يرى كيف يقضى
صاحبه سواد الليل .. لعل أحدا منهما يستطيع أن يسعد الآخر ..

وقلت فى نفسى : « لو تهدم السقف الذى يفصل بينهما ، لتهدمت معه
أسباب الشقاء الذى يسيطر على حياة كل منهما .. ولكن هيهات .. لقد
ذهب الرجل .. مات .. »

الشيء الممكن

أحسّت سعاد بوحشة شديدة في أول يوم من أيام العام الدراسي الجديد في مدرستها الثانوية . لم تكن المدرسة جديدة عليها ، بل على العكس كانت مليئة بزميلات وصديقات التقين جميعا في « الحوش » تحت ظل الأشجار المنشورة ، وتبادلن القبلات والتمنيات ، وتضاحكن ، وتعانقن . وكنّ يسكنن فجأة خلال الحديث الذي تسرد فيه ذكريات الصيف المنقضى لتقول واحدة منهن : « يا خسارة .. هكذا ببساطة تغيب عنا هذه الفتاة إلى الأبد ! »

أما هذه التي تحدثن عنها فقد كانت في بيت أبيها بعد أن انقطعت عن الدراسة ، مشغولة بشيء غير الذي يتحدث عنه زميلاتها . وصديقتها سعاد التي تصاحبها الوحشة الآن من أجلها ، تعلم قصتها بكل ما فيها ، وتعلم أنها لا تذكر لقاء الصديقات في أول يوم من أيام المدرسة إلا بالطريقة التي يذكر بها الكبار فرحة الأطفال ببذلة العيد ، فقد أصبحت مخطوبة ، وخطيبها اليوم هو حبيبها بالأمس .. وهى بعد ذلك كله ، أو قبل ذلك كله ، فتاة لها من اسمها نصيب .. وأحلامها كثيرة وطاقتها في احتمال الهموم أو الأسرار محدودة جدا !

وقد كانت سعاد مكملة لها في صداقتها . كانتا إذا اجتمعتا في بيت إحداهن سرحن في الحديث حتى تستأثر أحلام بالجزء الأكبر منه ، بل وربما كلّهُ ، ثم تفيق فجأة وقد رفعت أهدابها التي يثقلها الخيال وتقول لسعاد في شبه اعتذار :

— أنا أشعر فى سلوكى معك بأنانية كبيرة .. ألا تتضايقين منى
يا صديقتى ؟ أرجو ذلك . لكن غدا عندما أتزوج سأضع أذنى تحت
تصرفك !.. أقسم لك أننى سأكف عن الكلام معك على الأقل ! وعندئذ
يأتى دورك يا حبيبتى لتكلمينى عن كل ما تشائين . على أنك بطبعك
قليلة الكلام ! هل تدرين يا سعاد ماذا تشبهين ؟
— لا ..

— إنك تشبهين فى نظرى مخزن المتونة .. شئ غنى ، حنون ،
صامت يأخذ منه المرء ما يشاء ثم يقفل بابه على الباقي حتى يعود إليه مرة
أخرى . هل تشعرين بمقدار حبنى فيك ؟

وبهذه الذكريات كانت سعاد تمشى وحدها فى « حوش » المدرسة بعد
أيام ، أما أحلام فكانت تمشى بها فى مساء اليوم نفسه فى أحد شوارع
العاصمة الكثيرة الزحام مع خطيبها ، فى طريقهما إلى زيارة أمه .
وفى اللحظة الأولى التى يبدأ فيها فراق الأصدقاء ، يسأل كل نفسه
ويسأل الآخر : كيف يستطيعان التغلب على الزمن وصنع النسيان ؟
وتبدو المشكلة فى الواقع ضخمة عسيرة ، ولكن حركة التجديد
والتعويض تقهر كل شئ وتضمن لحياتنا الاستمرار .

فما لبثت سعاد أن اندمجت فى صعبة مدرسية جديدة ، وما لبثت
أحلام أن اندمجت فى حياتها العائلية ، وأصبحت الزيارات وأصبح اللقاء
متناسبا تماما مع الوضع الذى آلت إليه الصديقتان .

وفى بدء العام المدرسى الجديد ، وتحت الأشجار المتناثرة فى حوش
المدرسة نفسها ، وقفت ثلة من البنات يتضاحكن ويسلمن ويذكرن
الصيف الذى فات . حتى قالت إحداهن فجأة : « يا خسارة .. هكذا

ببساطة تغيب عنا هذه الفتاة إلى الأبد ١١ .

أما التي غابت في هذه المرة فقد كانت سعاد . كانت في بيت أبيها مشغولة بغير الذي تتحدث عنه البنات ، فقد أصبحت مخطوبة مشغولة بتجهيز سريع لتنتقل في أقرب فرصة إلى آخر مقار الدنيا بالنسبة للمرأة : بيت الزوجية !

وأصبحت الصديقتان زوجتين وغابت عن ذهنهما ذكريات المدرسة .. بعدت كما يبعد صدى الصوت . وأصبح حديثهما في كل لقاء متعلقا بالرجلين اللذين يخصانها ، ومن بعد ذلك يأتي الأمل في المستقبل . وفي إحدى الليالي دخلت أحلام بيت صديقتها مهمومة ، ولما استقرت بهما الجلسة لم تتحدث أحلام كمعادتها عن الزواج على حب ولا عن النقص الحقيقي الذي ينجم — في نظرها — عن التقاء الزوجين بطريقة غير طريقة الحب . وأحسّت صديقتها بالهم الذي يخالط نفسها ، فلما سألتها عنه أخبرتها أنها تعاني قلقا يكون مبهما أحيانا وظاهرا أحيانا .. وأن مرجع هذا القلق هو زوجها .

قالت أحلام :

— لقد مضى علينا عامان ونحن زوجان ، ومازلت أكن له طاقة من الحب أعتقد أنها أعلى بكثير مما يكنّ لي . لا تعترضني علىّ فأنا أعلم مقدما ما ستقولين ، ستقولين إنه مثل نار المدفأة يبدأ شرارة ثم يتلهب ثم يتحول إلى جمر هادئ ، وقد يتحول إلى رماد ! كلنا يا صديقتي بما فينا ، أجساما كنا أو أرواحا ، نسلك نفس الطريق .. فأنا لا أعاتبه على شيء يتفق مع هذه القواعد . لكن الذي أحسه هو أنني مهددة في كنز .. كنز عزيز أملكه .. وهناك من يتربص له ليسرقه مني !

لقد كان زوجي يعتمد ليلة البارحة أن يثير غضبي وهو يسلم عليها .
حقيقة أنها ابنة عمه لكنني كنت على وشك البكاء . ولما أحس بغضبي ثار
عناده وعاد إلى ما نهيته عنه .

ثم صمتت أحلام ورفعت أهدابها الغزيرة عن عينيّ فتوجان
بالعواطف ، وحملت في صديقتها مدة طويلة حتى تخيلت سعاد أنها هي
المتهمة . وما المانع ؟ ألا يجوز أن يكون ذلك مما يدور في خلد أحلام ؟
إنها امرأة غيور وزوجها رجل كثير التحجب ، قلبه في رقة النسيم ونقاء
الماء ، وحين يأتي لزيارتهم تطول عندها السهرة كذلك ، وقد علقت
أحلام على ذلك وفي دعابة خفيفة معلنة أن زوجها لا يطول جلوسه
إلا إذا كان عندها .

وخطفتها صديقتها أحلام من أفكارها قائلة لها :
— نحن على كل حال منقولان من العاصمة فترة لا يطول أمدها ، لأن
في نقله ترقية له . وكل ما يحزنني يا صديقتي أنني لن أجذك قريبة مني
فأنت التي أستطيع أن أثبك شكوى قلبي .
غير أن وقع الخبر على سعاد لم يكن مؤلماً .. كانت تحس أنها بعدت حتماً
عن مجال الشبهات في نفس صديقتها . إن هذه المشكلة لم تولد بعد ، ولكن
أليس من الجائز أن تكون جنينا ؟

وقبل أن تفرق الصديقتان انسكبت بينهما دمعة وفاء ..
وكانت خطابات أحلام إلى صديقتها تحمل طابع الراحة أكثر مما تحمل
من طابع السعادة .. ثم ظهر فيها القلق مرة أخرى ، ثم لحقها الفتور ، ثم
انقطعت . ولم تعد كل منهما تعلم عن الأخرى إلا ما يحدثها به قلبها أو
ما تضرمه لها من تمنيات .

حتى كانت ليلة من الليالى .. دق جرس الباب فى شقة سعاد بالقاهرة ، ثم أعلنت الخادمة اسم السيدة أحلام . ولما التقت بها صديقتها رأت عليها أشياء أنكرتها لأول نظرة . لكنها تجاهلت كل ما رأت وجلست تسألها عن أحوالها فى بشاشتها المألوفة . وبعد قليل علمت أن شقة الخلاف بينها وبين زوجها قد اتسعت وأنها جاءت إلى القاهرة وحدها لتقيم عند أبيها ريثما تهب الريح فى اتجاه يرضيها .

ولم يكن حزنها كمدا . لم يكن حزنا صامتا يصحبه التسليم أو الدهول ، بل كان حزنا حائقا من النوع الذى يشفيه الانتقام ، وسألتها سعاد عما جد فى الأمر وهى تقهر فى نفسها تهكما خفيا يريد أن يظهر :
— امرأة .. مرة أخرى يا صديقتى ..

— لا أكاد أجزم .. كل ما فى الأمر أنى أحس أن كنز اضاع منى . لا أعرف اليد التى أخذته ، وربما يكون قد ضاع فى الهواء .. تبعر فلم ينتفع به سوى .

وأحست سعاد وهى جالسة معها بشيء من الغرور .. غرور الربان الماهر الذى ينجو بالسفينة التالفة من شر العاصفة على حين أن غيره قد أغرق سفينته الجيدة الصنع فى البحر الهادئ .. لو أنهما تبادلتا الموقف ما استطاعت أحلام أن تعيش مع زوجها هى شهرا واحدا .

ولما هذأت أحزان الضيفة سألتها سعاد فى حنان :

— هل أصبحت تكرهين فيه كل صفاته ؟ ألم يبق فى هذا الرجل الذى

كنت تعشقين خلاله كلها ، صفة واحدة تستطيعين أن تحببها ؟

فأجابت بياس :

— لا . أعرف ..

— إذن فحاولي مخلصاً أن تعرفي ، وستجدين في إحدى خلالة نقطة تبدئين منها الحب من جديد .

وضحكت أحلام في شيء من الراحة ، ثم قامت معها إلى العشاء وعندما خلا بهما المكان مرة أخرى قالت ربة البيت :

— اسمعي يا أحلام .. عندي قصة ، فهل ترغبين أن تسمعيها ؟
فلمعت بسمة على ثغرها الحزين ، على حين استطردت صديقتها تقول لها :

كانت في السن التي يفكر فيها الأبروان بالنيابة عن بنتهما في العادة .
وكانت من البيئة التي يفكر فيها الأبروان عن البنات في العادة .
وباختصار شديد زوّجوها من الرجل الذي اختاروه لها .

والحياة الزوجية أشبه بطريق طويل يعترض الزوجين فيه — بين مرحلة ومرحلة — ستار بعد ستار . وكلما رفع أحدهما ستاراً رأى من خلفه شيئاً لم يكن يدريه .

والمهم يا صديقتي أنها منذ الليلة الأولى بعد لقاءها بزوجها ، رأت منه كل ما تكره . أحست أنها تزوجت أداة من الأدوات ، نوعاً يكاد يكون خالياً من العواطف . هو حقيقة ملء بالحياة ! لكن إذا كانت الحياة شجيرة فإن العواطف أزهارها ، وهي خلاصة إحساسنا وعطر وجودنا .
وكانت صاحبتنا تعلم ذلك لكنها لم تفزع حين رأت بيتها مليئاً بكل شيء إلا الأزهار .

كانت تحس نفوراً من الرجل وإن شاركته حياته .. حتى ماذا ؟ حتى إنها لم تكن تعلم عن غدها شيئاً .. شاركته الحياة والسلام ، وأجبرت نفسها بكلمة قالتها تلميحا ، كلمة « نعم » التي قالها والداها تصرّحاً يوم

خطبتها له .. هل تسمعين يا أحلام ؟
كانت تصلّى كلما كانت مهمومة ، خصوصا في الليل عندما تتكاثر
على جسمها متاعب النهار وعلى قلبها هواجس الظلمة .
وفي إحدى الليالي حاولت أن تنبج إلى الله في صلاتها بمشاعرها كلها .
أحسّت أنها تريد أن تكلم أحداً وأن تستعين بمن هو أقوى منها . وبطريقة
آلية بدأت صلاتها . وريدا رويدا زالت الآلية عن الصلاة وحل محلها
اندماج وخشوع وشيء يكاد يكون اتحادا . فلما فرغت رأت دموعا على
خدها وراحة بين جوانحها .

ومنذ هذه الليلة أدركت أنه من الممكن تحريك المشاعر بالطريقة التي
تحرك بها « الموتور » المتوقف بطريقة الدفع إلى الأمام . وهكذا يصبر من
يتكلف الصبر .. ويتشجع من يتكلف الشجاعة ، ويكي من يتكلف
البكاء .. وقد يحب من يتكلف الحب .. هل تسمعينني يا أحلام ؟
— نعم أسمع ..

— ومنذ هذه الليلة أخذت تبحث في زوجها عن نقطة تبدأ منها
« عملية الحب » ، فوجدت فيه شيئا جديرا بالحب ، هو أنه رجل صبور
شديد الاحتمال يتسامح عن غضبها وأخطائها حياله . فماذا فعلت ؟
صارت تعتمد أن تغضبه فينظر إليها نظرة الصابر الغافر . عندئذ تنبج
إلى قلبها لتقول له : « ألا تستطيع أن تحب هذا أيها الجاحد ؟ » .

وكانت كلما سجلت في إثارته رقما سجل في الصبر والعفو عنها رقما
أعلى . حتى كان يوم من الأيام فالخرطت في بكاء شديد بعد إحدى
التجارب .. واحتضنته بحنان وهي تقول له : « أنت لا تدري أى رجل
أنت ؟ أنت أكرم من ملك . إننى أحبك » فأحسّت في روحه بعثا

جديدا ..

ومنذ ذلك التاريخ عاشت حياة ليست كحياة العشاق ولكنها خالية من المتاعب .

وتنهدت سعاد كأنها تستريح من الكلام ، وتنهدت أحلام كأنها تتمنى أن تسلك نفس الطريق . وكانت على وجهها في هذه اللحظة آيات الرضا التي تظهر على من يستريح في أعقاب سفر متعب .. ثم قالت لربة البيت : — جائز .. جائز أن يحدث مثل هذا وأن تكون هذه المرأة موجودة في دنيانا .

فأجابت سعاد :

— إنها موجودة .. إنها هي التي تحدثك . إنها قصتي يا أحلام .. فردّت في ذهول :

— حقيقة ؟ لم يكن يبدو ذلك .. ١ .. كان كل شيء هادئا باستمرار . إنك رائعة ..

ليس في الموقف شيء خارق للعادة . أكبر الاختراعات يبدأ بمحاولة ، وأطول الرحلات يبدأ بالخطوة الأولى ..

فقالت أحلام : « سأحاول بكل ما أستطيع » .

السلوى

كان جو الليلة مائلا إلى البرودة ، وعلى الأرض بلل من مطر يعكس
الأضواء الزاهية بألوانها كلها على أسفلت الشارع . والجمهور الخارج من
السينما يتطلع إلى السماء متعجلا عودته إلى البيوت .. فقد كان الجو ينذر
بمطر جديد والعشاق والأزواج يلوذ بعضهم ببعض كأنهم يطلبون
الدفع .

ولم تكن سيارات الأجرة الواقفة على مقربة من السينما قليلة في هذه
الليلة ، ولذلك كان سائقوها يتعجلون كل نداء .. وأول سيارة تحركت
من المكان كانت قاصدة إلى مصر الجديدة يقودها شاب على رأسه قلنسوة
من الصوف نزلت حتى أذنيه لتمنع عنه البرد .

أما الراكبان فقد كانا رجلا وامرأة كل منهما في متوسط عمره ، عليهما
طابع الأناقة ويبدو أنهما غير زوجين . وبعد أن أقفل باب السيارة ملأ
العطر أنحاء المكان وتهدت المرأة وهي تضطجع في الركن ، وجلس
صديقها على مقربة منها متلامسين وإحدى كفيها مسترخية بين كفيه .
أما السائق فقد كان مرهف السمع . أذنه متأهبة لأن تسمع كل همسة
لأنه كان يعيش في مأساة شخصية منذ ثلاثة أسابيع . وكان يسمع في ثرثرة
بعض الركاب من خلفه ما ينسيه ألمه أحيانا .. ثم يفيق إلى الطريق حيث
توقفه الأنوار الحمراء أو تسمح له الأنوار الخضراء بمواصلة السير .

وحتى ميدان باب الحديد لم تصدر كلمة من أحدهما . ولما وقعت
الأنوار البنفسجية من المصابيح الساهرة في الميدان على وجه المرأة ، خيل

لصديقها أنه يراها مسبلة الأجناف وكأنها تحلم ، فسألها بصوت سميع السائق :

— لماذا أنت ساكنة ؟

فأجابت وكأنها استيقظت من النوم :

— آه .. يمكن .. ربما .. لأننى لا أريد أن أهوش الصورة العالقة فى

ذهنى من بعض مناظر الفيلم .

وعندئذ تذكر السائق العنوان الكبير المكتوب تحت الأضواء على واجهة السينما ، وتذكر صورة رجل قد وضع كفه تحت ذقنه وهو جالس يفكر وعلى مقربة منه وجه حسناء .. والفيلم نفسه اسمه « خيال حسناء » ، لكن السائق لا يعرف تفاصيله . غير أنه أحس أن علاقة معينة وإن كانت مجهولة تربطه بكل قصة حب .. خصوصا فى هذه الأيام التى يعيشها وكأنه فى دوامة . فتهد السائق فى الوقت الذى سمع فيه تهيدة أعلى درجة قد صدرت من الخلف .. من الرجل الآخر .. وبدأت السماء تسكب مطرها . وأخذت المساحة على الزجاج الأمامى للعربة تعمل فى رتابة مثبدة والشارع ممتد طويل يلمع كأنه نهر ساكن . وانطلقت من خلال هذا الصمت ضحكة عالية من الراكب قال بعدها لصديقتها :

— وهل تذكرين منظر الوداع الذى كان بينهما ؟

— آه .. هذا ما لا أستطيع أن أنساه .

— ها ها .. إنه كان متناقضا بحيث ضحكت وأنا أبكى . فعندما

قابلته فى الكازينو والمكان خال حولهما ، أخرج كل منهما لفافة وقدمها إلى صديقه فى صمت .. ها ها .. هل تذكرين هذا المنظر ؟ .. كفانا الله شر ذلك .

ثم ضغط على كفها التي أحس بالبرودة تسرى في أطرافها ، ولم يستأنف الحديث مباشرة . وفي هذه اللحظات التي ظلل فيها الصمت إلا من أزيز محرك السيارة ، رجع السائق بذهنه إلى أيام يتذكر الخلاف الذي دبّ بينه وبين أهل خطيبته ، وكيف أنه ذهب إليهم ذات مساء فدخلت عليه حماة المستقبل وقدمت إليه لفافة .. تركها السائق موضوعة حيث كانت وظلّ يحملق في وجه المرأة بعينين تفيضان بالانتهام ..

ثم صدرت من الراكب سعة خفيفة أعقبتها ضحكة صغيرة من السيدة ، قالت له بعدها بصوت هامس لا يخلو من الدعابة :

— ألم أقل لك إنه يجب أن تترك التدخين ؟

— وأنا ألم أقل لك إنه يجب أن تتركي .. (وهمس بصوت خافت)

.. الحب .

— نعم قلت .

— لا التدخين ولا هو .. أستطيع أن أتركهما .

وكان السائق في هذه اللحظة على الرغم من سماعه ما قيل لا يزال واقفاً بأفكاره عند اللقائين .. اللقافة التي قدمت إليه واللقافة التي تبادلها البطلان في الفيلم .. وأطفاً شوقه سماعه للرجل يكمل الحكاية .

— ولما تبادلوا الرسائل فأخذت ما سبق أن كتبتة إليه وأخذ ما سبق أن كتبه إليها ، وأوشك الموقف على الانتهاء تقدم إليها برجاء ما لبثت أن نفذته بسرعة وصمت واهتمام . هو أن ينسخ صورة بخطه هو من أول رسالة حب كتبتها إليه ، وفعلت هي مثل فعله . وقد أثار منظرهما الغاضب وهما منكبان على الكتابة ضحكى ودموعى ..

فشهقت السيدة وهي تضحك في إشفاق .. وعاد الصمت فخيم على

(حلم آخر الليل)

المركبة . وتذكر السائق ليلة أخذ اللغافة التي قدمتها إليه المرأة ، وفتحها فإذا هي تحتوي على القرط والدبلة اللذين قدمهما شبكة لفوزية .. ذات العينين السوداوين والقوام اللين . وكان على يقين وهو يضع الأشياء في جيبه بحماسة الرجل المطرود الذي يدافع عن كرامته ، كان على يقين من أن فوزية تبكى في الحجرة الأخرى . ومنذ ذلك اليوم وهو يحس بإحساس من يبحث عن شيء ضائع ، فهو يحملق في كل الوجوه كأنه سيرها في خيال كل امرأة .. وهو يستمع إلى كل قصة ليلتمس فيها الملهاة والسلوى ، وحدث نفسه :

— « لو كانت فوزية تعرف الكتابة لأرسل إليها خطابا بطريقة ما وتلقني منها الرد . إنه لا يشك في أنها تحبه لكن أمها تصرفت بالنيابة عنها . وأبوها رجل كسير الجناح ضعيف لا كلمة له ، فلو كان ذا شخصية في بيته فربما تغير الموقف » .
وتنهذ وعاد يمصمص بشفتيه .

وقالت السيدة الجالسة في المقعد الخلفي هامسة في أذن صديقها :
— يظهر أن النعناعة التي في فمه لم تذب حتى الآن .
وضحكت في خفوت ، وأراد صديقها أن يغطي على ما قالته خوفا من أن يكون الرجل قد سمع ما قالت ، فتنحنح وعاد يتكلم بصوت مرتفع عن حوادث الفيلم :

— « لقد رحل إلى أمريكا الجنوبية بعد ذلك ليغير الجو والناس .. مسكين .. تصوري أنني رثيت لحاله كأني كنت أعرفه حين رأيته يحمل متاعه كعبا ليهاجر إلى بلد آخر .. و .. » .
فقاطعته السيدة قائلة باعتزاز وثقة :

— ولسى أن الذكريات ترحل مع كثير من الناس . ألم ترحل معه فعلا ؟ بالعكس .. كان انكبابه على أعمال الزراعة هناك وإغراق نفسه في العمل ، دليلا على أنه عاجز عن المقاومة ..
فتمتم الرجل قائلا :

— أه .. يعنى .. ماذا إذن تظنين أن يفعل الناس ؟
وساد الصمت مرة أخرى . وكانت السيارة قد اجتازت ميدان العباسية وأخذت في الاتجاه إلى طريق مصر الجديدة ، وانخرط السائق في الأفكار :

— « هل من الممكن أن أهاجر من القاهرة .. لأنسى .. مادام البعد عن أماكن الحوادث يساعد على النسيان ؟ لكن .. إنها هى ذى أمامى ..
إننى أراها تهتز فى هذه « العروسة » المعلقة أمام الزجاج فى العربة .. كأنها تنظر إلى بعينها . فقط لو أنهم صارحونى بالسبب الذى من أجله عملت أمها معى هذا العمل القبيح ؟ »

وعاد يمصمص بشفتيه ، فغالبت السيدة ضحكة غالبتها وقالت تهمس :

— يظهر أنه وضع فى فمه نعناعة أخرى 11.
فما كان من صديقها إلا أن رفع صوته ليديرى على حماقتها قائلا :
— هل تذكرين السبب الذى حملهما على الخلاف ؟
فأجابت بدلع :

— نعم .. لقد عذبتها بغيرته عليها فى كل مناسبة ، وكان آخرها قصة غيرته من معلم الموسيقى العجوز الذى كان يتردد عليها فى بيتها ، ثم قدم إليها هدية بمناسبة عيد ميلادها . وحاولت أن تقنعه أن الفنانين فيهم رقة

فطرية بالنسبة لكل الناس .. لكن .. عيشا حاولت معه .. واتسعت شقة الخلاف حتى أدت إلى الفراق ..

— على أن أجمل شعور إنسانى أعجبنى هو شعور ما نحوه بعد غيابه .. فكما كان هو يحرق نفسه فى أعمال الزراعة لينسى كانت هى تحرق نفسها بطريقة أخرى ..

وسكت وأخرج علبه سجائره وأشعل سيجارة ، وخيل للسائق أنه نسى الموضوع .. وكاد يتدخل ليسأله عن المسألة لكن لطف الله به جعل الراكب يقول :

— كانت المسكينة تسهر كل ليلة لتكتب له رسالة طويلة تقول فيها كل ما تشتهى .. ثم تمزقها .

عندئذ خيم السكون مرة أخرى فعاد السائق يفكر :
— « آه .. لو كانت فوزية تعرف الكتابة ! مسكينة إنها لا تملك أن تكتب حرفا ولا تملك أن تنطق حرفا .. فى وجه أمها ولا أبيها حتى ولو كان مرتبطا بمستقبلها » .

ومصمم بصفتيه وأخذ يسترجع سلسلة الحوادث بينه وبين أسرة خطيبته منذ عام مضى حتى الليلة المعهودة ، فتذكر شيئا أثار شكوكه . سعد الدين أفندى ناظر الزراعة الذى كان يتردد عليهم ، والذى قالت عنه فوزية ذات يوم إن زوجته قد ماتت ، ثم أخذ يحمل الهدايا الكبيرة من مال غيره لأم فوزية من بواكير العنب والمango والبطيخ بصرف النظر عن أنه من سن أبيها . وقد رأت الأم أن الفرق بينه وبين سائق تاكسى فرق كبير . نعم .. لقد رأى ذلك فى عينيها ذات ليلة والضيف عندهم ، لكنه لم يكذب بصدق ظنونه ..

ثم قال فى نفسه : لكن .. أليس من الجائز أن تهب الرياح فى اتجاه آخر .. أن تموت أم فوزية .. أو أن يموت سعد الدين هذا .. أو أن تهدد فوزية أمها بالانتحار إن زوجها منه فترجع إلى ؟ .. لكن .. هناك حل أسهل من كل هذا هو .. (وكاد ينطق بأفكاره) هو .. أن أموت أنا .. وأحس بغصة فى حلقه وبحاجة إلى الدموع . وجاءه صوت السيدة من الخلف تقول : يا لها من رواية .. لعن الله الحب .. لقد عذب الاثنين .. فخرج إلى القصة الأخرى وقال بينه وبين نفسه :

— سأجعلها فألا لقصتى ، فإذا عاد الحبيبان فى الفيلم كل إلى الآخر عادت إلى فوزية .. وإلا .. لا ..

وعندئذ جاءه صوت من الخلف يقول :

— البيت الثانى على اليمين بعد الناصية .. من فضلك .

وهناك نزلت السيدة . وواصلت السيارة شوطها .. فقال السائق فى نفسه لماذا لا أسأله الآن عن ختام القصة عسى أن يكون فيها أمل ، فضلا على أنها شيء مشوق .

وأخذ يجمع شتات شجاعته ليسأله عن نهاية الفيلم .. وتردد .. وعاد يمصمص بشفتيه .. وأخير استجمع قواه وهتف :

— يا سعادة البية .

فردّ عليه صوت مرح يقول ضاحكا :

— كأنك تعرف البيت .. نعم . نعم . هو التالى إلى اليمين .. لعلك

جئت معى مرة قبل ذلك .. قف !

فوقف .. ونزل الراكب ببقية القصة ، وتحرك السائق بأثقال قصته ، وقبل أن يفيق من غمرة الأحداث التى بخلت عليه بالسلوى ، سمع صوت

رجل مخمور ينادى بصوت متلعثم ويشير بحركات مضطربة قائلا :
— تاك .. سي .. تاك .. سي !
فذهب إليه وهو يلقي نظرة على العروسة المعلقة في مقدمة العربة التي
تأرجح أمام عينيه .. كأنها طيف من الذكرى .

اقتلوني بسيف الحب

تعرفت على ابنها في السنوات الأخيرة ، عقب تعيينه موظفا معنا في الديوان .

ويوم دخل علينا مكتبنا ، نظر بعضنا إلى بعض نظرات ذات مغزى .
وحين كان يفتش أدراج المكتب الخالي الذي مات صاحبه فأخلى له
المكان والدرجة ، كانت نظراتنا تقول : يا له من شاب ثقیل !!

كان يبدو متكبرا مغرورا ، تحصنت كبرياؤه في وجه وسيم لا تسمح
ملاحظه لأحد أن يسخر منه .. وتحصن غروره في قلعة الكلام فهو
لا يشارك في حديث يتطلب الرأي إلا بحذر شديد .

لكنني اكتشفت فجأة أن هذا الهيكل الجميل المنفوخ المتكبر يحمل بين
حنایاه قلبا طيبا ساذجا ، يتشهى ويتمنى ، ويتحصن من الناس بشيء
واحد ، هو سوء الظن .

كان ذلك والوقت صيف حين خلا علينا المكان ، وبقية الزملاء في
إجازة ، ودخل علينا عامل البوفيه ليجمع الأكواب ويفرغ من الطقاطيق
أعقاب السجائر .

وكان اليوم أول الشهر ، وكنا نعرف عن هذا العامل سمعة معينة ،
ورأيت العامل ينظر إلى صدق أفندي نظرة فيها قلق ، ثم خرج من الغرفة
دون أن يتكلم ثم عاد متلمسا عذرا ، ونظر في نواحي الحجره كأنه يفتش
عن فنجان ، فقلت له وأنا أفتح أدراج مكتبي ساخرًا منه : تعال تعال !
فتش ها هنا وربما وجدت فنجانا !

فخرج وهو يهز جسمه الطويل ، لكننى أشفقت عليه وأخليت له المكان بعد لحظة وذهبت لبعض شئونى ، وحين فتحت الباب من جديد كان العامل قد أنهى حديثه مع صدق أفندى وسارع بالخروج فى اللحظة التى كنت أستقر فيها على كرسى مكتبى .

ألقيت على زميلى نظرة جانبية شامتة ساخرة فى وقت واحد ، ثم قلت له وأنا أفتش فى جيبى عن علبة السجائر : « وقعت يا حلو ؟ »

فرفع صدق رأسه من بين الأوراق وقال وهو يضحك بقمه الصغير : — « بإرادتى والله .. صدقنى .. بإرادتى والله » .

فأجبت : « لا داعى للمبالغة ، فإن الرجل محتمل خطير » .

فأجاب صديقى : طبعاً .. أنا أعلم ذلك !

فقلت له : وألذ ما فى احتماله أننا نسقط فى شبكته ونحن نعرف أنه محتمل . هل أخذ منك نقودا ؟

— نعم ، أخذ . .

فقلت وأنا أقهقه :

— غريب أن يحدث هذا وأنت رجل حذر .

فقال وهو يتنهد :

— أعتبر هذه غفلة ؟

فقلت ووجهى غير ناظر إليه ، وأنا أنفخ تراب سيجاره الذى سقط على أحد الملفات :

— غفلة بلا شك .

فاستطرد :

— ليتنى كنت مغفلاً .. فأحب كل الناس !؟ ..

ثم زاغت عيناه في فراغ الحجر ، حتى تركزتا على برنيطة المصباح
المدلى من السقف في سلك طويل ، ثم استرد نظرتة وألقاها على وهو
يقول :

— أحمد .. تعال هنا لحظة ، إن كان عندك وقت .. تعال .

وجلس على كرسي من الخيزران مرخى النسيج من كثرة
ما استعمل ، فقدم لى سيجارة أخرى . ودق جرس مكتبه فدخل علينا
عامل البوفيه نفسه وقد زالت من عينيه نظرة القلق ، وألبست الطمأنينة
وجهه نورا وهدوءا وبشاشة . فطلب صدق فنجانا من القهوة ، ثم مال
على يتكلم :

— هل تعجب من هذه الأمنية التي أتمناها ١٩ ! إننى أطلبها من الله منحة
من عنده . تأكد يا أخى أن المغفل الذى يحب كل الناس أسعد بالا من
الحذر الذى يسيء الظن بكل الناس . وأنا لا أزال أذكر حكاية جدى ..
أم أمى التي كنت أحبها كثيرا ..

فهزئت رأسى أستزيده فاستطرد :

— رأيتم يخرجون بها من البيت وأنا ابن ثلاث سنوات بطريقة غير
مألوفة ، مفزعة لم أفهم معناها ، بين صراخ وعويل . فلما دخلت
حجرتها في المساء فلم أجدها قالوا : إنها مسافرة . وظللت أرقب عودة
المسافرة ولكنها لم تعد ، حتى بلغت سنا عرفت فيها أن كلمة السفر في
بعض الأحيان ترادف كلمة الموت .

فقلت : طبعاً ، فقد كنت طفلاً صغيراً .

فقال : لكننى نجوت من مشكلة فهم الموت ، ومشكلة الحزن على
الموت بسبب غفلة الأطفال ..

والمغفلون أطفال .. سعداء في عالم الحب .

فقلت وأنا أقطب جيبى :

— وإلى هذا الحد أحبيت الحب ؟

فأجاب وهو يهز رأسه في إصرار :

— نعم ، ولكننى لم أصل بعد إلى ما تهفو إليه نفسى .

— لماذا ؟

— ذلك شئ قديم ..

— جدا ؟

— قدم طفولتى .. أنا ابن السابعة والعشرين إن لم تزد .. هل هذا

قليل ؟ ..

اسمع !!

لم ينجب أبى من الأطفال سوى اثنين فحسب .. بنت صارت عروسا ، وولد صار شابا هو أنا . وكانت أختى أكبر منى ، وكانت مختلفة مع أمها باستمرار لأمر لست أعلم تفاصيلها وإن كنت أعلم بعضها . لكن الذى يهمنى الآن هو أن أقص عليك حادثة معينة وقعت فى أسرتنا مرتبطة بما نتكلم عنه ، مرتبطة بالحب الذى يصل إلى درجة الغفلة ، والحذر الذى يصل إلى درجة المستريا . فاسمع !

كان باب الوسط يفصل بين الحجرتين ، الحجرة التى أذاكر فيها وأنا غلام ابن اثنى عشر ربيعا ، والحجرة التى تجلس فيها أمى وأختى الكبرى . وتوقفت عن المذاكرة حين وصل إلى صوت نقاش حاد نشب بين أمى وأختى ، وقام هذا النقاش عقب انصراف ضيوف من شقتنا . وكان الكلام يصل إلى واضح إلا من بعض ألفاظ لم يكن غيابها

يشوش الحادث ، وكانت أختى تلوم أُمى على أنها أغلظت القول لهذه الأرملة صديقة أُمى القديمة ، والحديث الترميل . كانت أُمى تريد أن تحدد العلاقة بينها وبين هذه الأرملة بعد أن أبدت رغبتها فى الاستعانة بمجهود أُمى على تسوية أمر معاشها هى وأولادها . ونجّلت أُمى أن المسألة ليست مسألة معاش ولكنها مسألة خطة . وأن هذه الأرملة التى بدا الانكسار على جماها فزاده فتنة ، ستستولى على أُمى بعد جولة أو جولتين .. فتحرشت بها أُمى حتى أغضبتها . وحين قالت لها الأرملة وهى تبكى عند باب المسكن : « والله لن أدخل عتبتكم بعد اليوم .. » لم تردّ أُمى عليها . وكانت أختى فى الداخل تخفى دمعها بين كفيها .

ولم تعد المسكينة بعد ذلك إلى بيتنا قط .. واستعانت بالله وبناس غير أُمى على قضاء مصالحها . ولم تحاول أُمى أن تصل حبل ودها فغابت ذكرياتها فى ضباب الليالى ..

وكل هذا لم يكن غريبا على خصال أُمى ، فقد كانت معاملتها دائما تدور حول هذا المحور : الحذر الذى يولد الكره ، أو الاحتياط الذى يشبه الهستريا .

وقد لقتنى هذا وسقتنى إياه ، وإن أصبحت أكرهه كما يكره الخمر مدمن الخمر .

لهذا ترانى هكذا ، كما ترانى ، لا أشد عن حذرى إلا إذا تشوقت إلى معاينة الضد ، كمثّل البخيل الخبول الذى يوسع على أولاده مرة من المرات ليدوق طعم الإسراف .

ثم سكت صدق لأن عامل البوفيه دخل ليجمع الأكواب ، ولما أقفل الباب من ورائه وهو خارج استطرد صدق يقول :

— لقد أعطيت هذا المحتال جنيتها طلبه منى . لقد أدلى إليّ بعذر محبوك ، لكننى واثق من أنه استعمله مرة قبل ذلك عند موظف آخر فى الحجرة الأخرى . أعطيته ما طلب لأذوق طعم الغفلة فقط ، أو لأذوق طعم الحب ولو كان فى كأس من الاحتيال .

قلت لصديقى : هذا غريب ! إنك لم تبد لي مطلقا فى مثل هذا الذكاء . أقصد أننى لم ألمس عمق أفكارك من قبل كما لمست فى يومنا هذا . فلماذا تبدو اليوم هكذا يا أخى ؟ .. وضحكت فقال :

— أغبى الأغبياء يستطيع أن يصف لك تجربة عميقة على شرط .. على شرط أن تكون شخصية وذات أثر بعيد المدى فى حياة هذا الغبى . وابتسم صدى ثم سكت .. ثم قام ففتح مصراع الشباك الثانى ليدخل هواء أكثر .

وكان ضجيج الآلات الكاتبة فى الجناح المواجه يأتى إلينا وكأنها فرقة لوز .. فرقة متصلة لا تكاد تنقطع . ثم جلس وتهد ليستأنف القصة : — أما أختى « عنايات » فقد كانت بعكس أمى . فنهته وسألته :

— تقول : كانت ١٩

— نعم .. كانت . وأنا أقصد ما أقول .

— وهل تغيرت بعد ذلك ؟

فهز رأسه فى أسف :

— لا تقاطعنى .. لا تأخذ الحكاية من الدليل .. انتظر .

كانت بعكس أمى . كانت تحب الناس .. كانت ألوفة تحرص على أن تعرف مصير جليباها القديم الذى تخلعه . لكن أمها كانت بمثابة الشكيمة

من الحصان تمسكها فجأة إذا نسيت أو اندفعت . وكأنا أراد القدر أن يجعل نهاية حياتها الشابة حادة مثل عاطفتها تماما ، فقد كان لنا ابن خالة يتردد على بيتنا ، وكانت أمي واثقة من أنه زوج المستقبل لبيتها الوحيدة . وكان — كما ظهر بعد ذلك — بين الفتى والفتاة حب عنيف . ثم فترت العلاقة فجأة حتى أصبح تردده على بيتنا قليلا .. ثم انقطع .

وبدأت عنايات في الذبول . وتغيرت أحوالها .. وكثر اعتكافها كما كثر عدد القطع التي كانت تتجها من أشغال الإبرة . كانت تشتغل كثيرا وتدمع كثيرا وتقفل عليها باب غرفتها بالساعات ..

ونشب الخلاف بينها وبين أمنا حول هذا الموضوع . أعتقد أن الفتاة كانت قد باحت لها بمكنون نفسها ، وأن الأم التي خيل إلى أنها تربط بين العاطفة وجدول الضرب قد قست على ابنتها في الأمر ، وتحملت أن الهوى كلمة تكتب بالطباشير .. تكتب بسهولة ثم تمسح بنفس السهولة !

ثم انتهت قصة عنايات نهاية درامية كالتى تقرأ عنها في الروايات . سمعنا فجأة أن ابن خالتي خطب ، فلم نصدق ، لكننا تأكدا حين عقد قرانه على فتاة أخرى . دعنا من قصة الأخرى فهي خارجة عن نطاق موضوعنا .

وتزوج ، وصفى حساباه بالنسبة للفتيات .. لكن عنايات لم تستطع أن تصفى حسابها بالنسبة إليه .

يظهر أن قسمة الحب بينهما لم تكن مضبوطة ، لأن نصيبها منه كان أكبر من نصيبه ، فجاء نصيبها في المأساة أكبر بالطبع ..

وسكت صديق ، فهزرت رأسي أستزيده فقال :

— ثم اعتلت عنايات .. ثم استبدت بها علتها . وفي أمسية من

الأمسيات خلق على سريرها طائر الموت . عجيب أن نحب فنسعد ، وأن نحب فنموت !

وابتسم وتابع حديثه :

— وكنت أنا وأمى إلى جوارها ، أما أبى فقد فر من البيت . لم يطق أن يرى شمس شبابها وهى تتجنى إلى المغيب وقت الظهر فطار إلى الخارج . وكنت أحلق فى وجه أختى بغضب وأسف وحب وحقد . وقمت لبعض شأنى وهى مطبقة عينها ، ثم فتحت عليها باب الحجرة ودخلت ثانيا فإذا بها تفتح عينها وتبتسم . وأشرق وجهها كله حتى تخيلت أن حضرة الحياة ستدب فيها من جديد ، لكنها عادت فأغمضت عينها وهى تهمس :

« هل جئت .. كانوا يقولون .. إنك لن تعود .. تعال ! »

وماتت عقب ذلك وبقي على وجهها من بشاشة الحب .. شىء أشبه بنور الشفق بعد غروب الشمس كان يزول ويویدا ويویدا . أما أمى فقد زاد حنقها على الناس أو زاد كرهها للحب بعد هذه الحادثة .

وغابت الحوادث فى ضباب الليالى ، وهأنذا أعيش مع أمى وحدنا فى بيتنا .. وقد دفعنى هذا المحتال اليوم دفعا إلى أن أجرب الحب على النطاق الواسع الذى قد يصل إلى حد الغفلة ، فتذكرت كل ما قصصته عليك . ومضى على ذلك عامان ..

كان صدقى فىهما كما هو دائما ، وسيما صامتا متصلا بنفسه وحدها ، أشبه بخلية العسل المقللة لا يدري أحد مقدار ما فيها .. حتى فوجئنا ذات صباح بأمر نقله إلى إحدى مديريات الوجه البحرى فى مركز أحسن . ولم يكن أمامه عتبة يعتد بها إلا أمه تلك المقيمة فى بيتها بالقاهرة ، لأنها تحتاج إلى رعاية الأطباء ولا تستطيع أن تفارق ملكها ، ولا أن تعيش فى

بلد غريب .

وأخبرني أن قراره قد استقر على أن يسافر ويتركها ، وأن يأتي إليها كل أسبوع أو أسبوعين على حسب الظروف ليدبر مصالحها .. ولو أن افتراقهما سيكون مرا لأنهما لم يجريا الفرقة قبل ذلك يوما واحدا . ثم رجائي أن أقوم مقامه في السؤال عنها لأنها تعرفني ولو أنها لم ترق كثيرا ، وأخبرني صدق بزهو شديد أنني استطعت أن أنال ثقة أمه . في ماذا ؟ في لا شيء ! إلا أن ثقتها شيء غال جدا لا يمنح إلا لمن من الله عليه ووقفه .. وضحكنا .

وحين رأيتهما من جديد خيل إلي أنني لم أرها من قبل .

كانت قد تغيرت ، لبست ثيابا من الشيخوخة الموحشة غير ذات الحنان ، تذكرك بجناحين تنف عنهما الريش .. وما قيمة جناح لا ريش عليه لا يدق حتى صاحبه ؟

وشاخ الصدر في عينيها لكنه بقي حيا . وكنت إذا جلست إليها لا تقص علي ما تقصه المسنات في العادة من حوادث ونوادير يوفرها للناس طول العمر ، وتلك من أكبر مميزات الشيخوخة . كانت لا تحدثني إلا عن خوفها من النهاية . فقلت في نفسي : اللهم ارحمنا .. ارحمنا يا رب .

تقضى أيام قوتها خائفة من هم أقوى منها ، وها هي ذى تقضى أيام ضعفها خائفة من الموت . ما هذا العمر ؟ ..

وهرت منها الخادمة بعد سفر ابنها بعد الزيارة الثانية فخلا عليها البيت . وحين أبدت لي مخاوفها من رقادها وحدها ، أبدت لها استعدادي أن أبيت معها . فسكتت موافقة لكنها تمتعت بكلام فهمت

منه بعد ذلك معنى التردد ، فعدلت .

وحين طرقت عليها بابها في الصباح التالي لم تفتح لي إلا بعد مدة طويلة ، وكانت آيات الفناء بادية على وجهها ، وكان ردها على تحية الصباح أن قالت لي : أرسل لابني برقية ليحضر .. أنا مريضة !! ثم نادتنى وأنا نازل فرجعت لتقول لي من جديد : أجلها لباكر .. لنتنظر وقتا آخر .

لكننى عدت في المساء فوجدتها متعبة ، فأرسلت لابنها أستدعيه . ولم أذهب في اليوم التالي إلى مكتبي لأننى توقعت لها مكروها . وأعطتنى أم صدق عنوان إحدى قرياتها تسكن في إحدى الضواحي فذهبت إليها وأخبرتها . وبعد ساعتين من عودتي دخلت علينا القرية ضجرة متضايقة كأنها تحمل على كتفها نصف الأرض .

ونامت العجوز أو غابت عن وعيها لست أعلم . وتركت أنا المسكن وخرجت مؤملا أن أعود فأجد ابنها قد رجع ، لكننى رجعت فوجدت المنزل كما تركته .. صامتا موحشا أشبه بجو الحقول في الليل بعد أن يخلها الحصاد من كل زرع فلا يبقى فيها مطمع .. وهكذا كانت ساعاتها الأخيرة !!

وعرفنا دقة صدق على الباب لأنها دقة مذعورة . وقبل أمه في جبينها وهي مغمضة العينين . ولم يكن على وجه العجوز آثار راحة . من الحاضر ؟ مؤكد .. من الماضي ؟ مؤكد أيضا !! أما ما بعد الموت فعلمه عند الله .

ونظرت إلى ابنها ونظر إليّ وتذكر كل منا « القصص » ولم نتكلم . تذكرنا « عنايات » التى هتفت قبل أن تموت حين توهمت أن حبيبها

داخل عليها : « هل جئت ١٢ .. كانوا يقولون إنك لن تعود .. تعال ١١ »
تذكرنا هذا في اللحظة التي فتحت فيها علينا قرية أم صدق باب
الحجرة التي ترقد فيها المريضة ، حين همست المريضة بصوت ضعيف
تقول : « هل جئت ؟ .. إن عنايات لا تريدك .. اخرج ١١ »
وتكرمش وجهها بتجاعيد كثيرة جدا ، وظلت دلائل الصرامة باقية
عليه حتى آخر نفس .

ماتت البنت وعلى وجهها آثار من بشاشة الحب ..
وماتت الأم وعلى وجهها آثار من كدر الكراهة ..
وكنيت أهبط السلم لأساعد صديقي في بعض الشئون المعتادة في مثل
هذه الظروف ، وأنا أقول في نفسي : « لا .. يفتح الله ياها .. إذا كان
لا بد من إحدى حالتين فلنمت كما ماتت عنايات . اقتلوني إذن بسيف
الحب » .

الرجل المريض

ما قابلته مرة وسألته عن الحال ، إلا قال لي بعد أن يرخى شفتيه إرخاء المشمزين :

— زفت ..

فأكمل ساخرا :

— وقطران ؟

— وقطران ..

فأتركه وأنصرف وأنا أحس سعادة لا نظير لها ، بسعادة الذين ينظرون من وراء الزجاج وهم في الحجرة الدفينة إلى الذين يهرولون تحت المطر ، ثم أسير وأنا أسأل نفسي :

— هل حياتي أنا شخصا تخلو من المتاعب ؟ لا .. لكنها ليست زفتا ولا قطرانا .. إنها مائدة ملونة عليها أشياء كثيرة ، فلماذا يكثر هذا الرجل من الشكوى ؟

وكنت عرفته منذ ثلاث سنوات ، قدمه إليّ أحد الأصدقاء الذين ألتقى بهم على القهوة مساء كل جمعة ، حيث كنا نلتقى فيشرح بعضنا لبعض ملخص أنباء الأسبوع ، ويتحدث كل منا عن نفسه فيذكر نعمة الله أو يشكو الهم أو يطلب النصيحة ، إلا عثان أفندى هذا .

كان يعلق على كل ما يسوء تعليقا أشد إساءة ، ويتجهم في وجه الذي يقص قصة سعيدة ، ويتشاغل في نقل قطعة من قطع الشطرنج على الرقعة المربعة .

ومنذ ثلاث سنوات كان عثمان أفندى رقيق الحال ، في سنة ١٩٤٠ شغل بالنأ وباله وبأل خادماً القهوة بسفالة رئيسه في المصلحة وسوء اضطهاده له . كان عثمان أفندى يتحدث دائماً عن رئيسه إلى حد أننا ظننا أننا عشنا مع هذا الرئيس . وكان يختم شوطه في اللعب إذا انتصر فيه بقوله بضحكة ودعوة : « ها نحن أولاء قد انتصرنا .. يخرب بيتك يا أستاذ بسيوني » . ويفعل العكس إذا انهزم : « ها نحن أولاء قد خسرنا الدور .. يخرب بيتك يا أستاذ بسيوني » .

وأضحك ويضحك الناس . وسألنا ونحرينا — إنصافاً للغائب ورعاية لحقه — عما عسى أن يكون قد فعله الأستاذ بسيوني في الأستاذ عثمان ؟ أعنى عما عسى أن يكون قد فعله الرئيس مع المرعوس ، فلم نجد إلا أشياء غامضة .

— هل نقصك حقلك في الترقية يوماً من الأيام ؟

— لا .. ترقية إيه ؟ هل هناك ترقيات ؟ وجهه شؤم والسلام .

— هل يكلفك في العمل أكثر مما يكلف غيرك ؟

— لا .. غيري إيه ؟ هل تظن أن الإدارة التي أعمل فيها تشتمل على

موظفين ؟ .. كلهم حمقى أغبياء ، لا أستطيع أن أتصور كيف يسير

العمل هناك لو أنني غائب عنها ؟

— ممّ تشكو إذن ؟

— لا تسألني عن هذا .. أسألني عما يعجب في حياة كلها زفت .

ويضحك بعضنا ويتغامز الباقيون ، وأحس وأنا جالس بدفء

السعادة . إن لي زوجة مريضة تستهلك معظم مرتبي في الأدوية ، وكثيراً

ما أستدين . وشهيتي أقوى من طعامي ، ولعل ساق أطول من رجلي

بنطلوني ، ولكنني أرى أن في الحياة أشياء جميلة .
هناك ولد هو ابني أنظر إلى عينيه بمحبة وأمل ، وزوجتي المريضة
تتحامل على نفسها لتخدمني ، وقد تناغيني وتدخل على قلبي المسرة مخفية
معالم تعبها ، فأتجاهل وأسعد نفسي وننام بعدها سعيدين نحن الاثنين ،
وأهمس بيني وبين نفسي :

— ألا يملك عثمان أفندي في بيته مثل هذا الخير وهذا الشر ؟
وأسكت ، وأنظر إلى ملابسه فأجدها خيرا من ملابسى ، وإلى صحته
فأجدها خيرا من صحتى . ودخله قدر دخلى ، فماذا به ؟
وفي نهاية سنة ١٩٤١ جاء عثمان أفندي إلى القهوة مساء الجمعة وهو
يلعن ويسب ، ويكرر حكاية الزفت والقطران باستمرار وإصرار .
وانهزم في عدة أدوار في الشطرنج في هذه الليلة .. وكان يلعب ببحث
وينهزم فجأة ، ويدعو على الأستاذ بسيوفى بخراب البيت كلما قام عن
اللعب .

وأخيرا قبل انصرافنا من القهوة أعلن فجأة : « أنه تركها »

— ما هذه التى تركتها يا أستاذ ؟

— الوظيفة ..

— الوظيفة ؟

واختلفنا ونحن في الطريق ، ووقفنا كثيرا في ميدان السيدة نناقش
الموضوع — فقد كنا كلنا موظفين — وحاولنا أن نصل إلى النتيجة .. هل
هو مخطئ أو مصيب ؟

واتفق الجبناء على أنها مصيبة ، وأعلن الشجعان أنه عين الصواب .
لكن ماذا ستعمل يا عثمان أفندي ؟

— الدنيا حرب .. وقد دبرت بضعة مئات من الجنهات من مالى
ومال زوجتى لأفتح مكتبا اسمه « شركة .. » للنقل لعموم القطر .
وابتدأوا يعلقون :

— عرفت باب الغنى ..

— مغامرة ..

— أرزاق ..

— إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه ..

— براقو ..

— وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ..

— هناك خطر واحد فيما إذا لو توقفت الحرب فجأة ..

— لا .. الخطر هو فى أن « رأس ماله » يتحرك ذات اليمين وذات

الشمال على الطريق نحو الجنوب ونحو الشمال ..

« ها .. ها .. ها » .. وضحكنا ..

وانقطعت أخبار عثمان أفندى فلم نعد نراه ما يقرب من عام ، ثم هل
علينا فجأة فكبر الجرسون وهلل .. وتلفتنا ونحن نلعب الشطرنج فإذا
عثمان أفندى داخل وعليه علامات العز ، وله شارب طويل وهيئة تدل على
أن فى جيبه « محفظة » .

— يا سلام .. كيف الحال يا سيد عثمان ؟

فابتسم فى وقار وهز رأسه بنوع من الكبرياء ، وقال وهو يجلس على
كرسى :

— زفت أيضا .

ورئت ضحكاتنا فى صخب ودبدب بعضنا برجله على الأرض ،

وطلب عثمان أفندى شيشة ، وأخذ دوره في الشطرنج ، وهزم ، وقام يدعو بخراب البيت على من .. على الأستاذ بسيومى أيضا .
— لماذا يا رجل ؟ لقد تركت الوظيفة وانقضى الأمر ، وفتح الله عليك بسبب ذلك .

— ها .. ها .. أنت لا تفهم .. لقد وجدت « أستاذ بسيومى »
جديدا في السوق بعيدا عن الوظيفة ، أعوذ بالله ، في حياتى دائما « أستاذ بسيومى » .

— أى .. إذن فأنت تطلق هذا الاسم على كل منافس لك ؟
— تمام ..

— هل تخلو الدنيا من المنافسين ؟
— لا أعرف .

— طبعا فأنت تريدها لك وحدك ، وهذا مستحيل .
— زفت ..

— طبعا لأنك تريدها « لبنا » خالصا وعلى طول الخط ، وهذا مستحيل .

— لقد تركنا الوظائف والفهم والتفكير ، فدعونا من هذا ..
— حسن .. أتريد أن تلعب ؟
— لا .. سلام عليكم .

وردت أصوات مشتركة في نبرات مختلفة :

— وعليكم السلام ورحمة الله يا عم عثمان ..

ومضى على ذلك خمس سنوات ، وكادت أنسى هذا الشخص في صورته المختلفة . كادت أنسى عثمان أفندى في بدلة الموظف ، وأنسى السيد

عثمان في أبهة التاجر ، حتى جلست ذات مرة في إحدى المركبات العامة فإذا بي أجد إلى جانبي وجها ، عرفت فيه ملامح قديمة ، لكن دلالات السن كانت بادية عليه . وترددت في أن أكلمه .. ، وأخيرا عرفته تماما بأثر جرح خلف أذنه ، وكانت إلى ناحيتي لحسن الحظ .. وقلت له بحركة آلية صرف كما يقول كل الناس :

— أهلا .. الأستاذ عثمان .. كيف الحال ؟

فإذا به يقول بلهجة حقيقية تحمل طعم المأساة أصدق بكثير مما كنت أسمع قديما :

— زفت .. لكن .. الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله ..

وأخرج من جيبه منديلا أبيض غير نظيف ولا مكوى ، ومسح به عرقا قليلا .. ولم يخرج كلامنا عن النطاق العادي ، وأخيرا نزلنا معا لأن الترام وصل آخر الخط .. ونظرت في عينيه فإذا فيهما كلام ، وانتحينا ناحية على مقربة من رجل ينادى على ترمس بصوت رائق ونبرة سعيدة ، ويبل ريق الناس على الطريق العام بقلل على عربته في أفواهاها نعناع أخضر ، فقلت له :

— ما القصة ؟

— القصة ؟ .. كسبت كثيرا جدا .

قلت بحماسة :

— عظيم ..

فقال بانكسار شديد :

— وخسرت كل ما كسبت ..

وكان ذلك يبدو عليه دون أن يقول ، عليه بدلة رمادية أسوأ من التي

كان يسب فيها أجداد الأستاذ بسيوني أيام كان موظفا . وسألته :

— لكن لماذا جرى هذا لك ؟

— آه .. سألتني ، عرفت أخيرا أن هناك فرقاً يا سيدى بين الطموح والحسد ، وفرقاً يا سيدى بين البلادة والقناعة ، كنت أرى أن كل ذى نعمة ليس أهلاً لها ، ولا أرى النعمة إلا فى أيدي الناس ، لذلك .. تعبت ... ولما كان « الغنى » شيئاً لا نهاية له فإن متاعبى كانت لا نهاية لها ..

قلت مجاملاً :

— لا .. أنت تظلم نفسك ، ليس الأمر معقداً إلى هذا الحد .

— أنت تجاملنى . لا ، لقد رأيت ملاح نفسى جيداً ، بعد أن عملت مقاولاً وأكلت إحدى المناقصات كل الذى جمعه فى زمن الحرب .. لقد رجعت من أول الخط .. ثانياً ..

ولم أجد ما أقوله ، فمددت له كفى بإشفاق وأنا أقول :

— دعنا نراك على القهوة ، لا زلنا نذهب إلى هناك كل ليلة جمعة ، تعال .. سرّ عن نفسك ، إن مرحلتنا لم يفارقنا بعد ، هناك ننسى الهموم يا صديقى .. لا تنس أن تحب ..

فقال وهو يصافحنى :

— سأحاول

— وإلى أين أنت ذاهب الآن ؟

فأشار إلى الترام العائد :

— سأعود إلى أول الخط .. مرة أخرى .. لقد ركبت خطأ فذهبت
إلى غير مقصدي ، سأعود من جديد ، سلام عليكم ..
ونظرت إلى ظهره فرأيت بين كتفيه آثارا من العرق ، ورقة على البدلة
الرمادية التي تشبه بدلة الوظيفة القديمة ..

سحابة صيف

كان الصيف فى أخرياتة يوم عزمت على السفر إلى الإسكندرية ..
و كنت مشتاقا يومئذ إلى الخلاء لأننى كنت ضائعا بنفسى .

كان هناك كثير من المشاكل والمنازعات تخيم على جو أسرقى ، منها أن بعض السندات التى أملكها تدهورت أسعارها فى السوق ، وأن سوء هضم شديد حرمنى لذة الطعام ولذة النوم وجعلنى أحسب ألف حساب لكل لقمة وكل ضجعة .. وأن أختى اختلفت مع زوجها فطلقها وعادت إلى البيت فى يدها ولد وعلى كتفها بنت وفى بطنها جنين ، وأن أمى ابتدأت تشعر بانهايار عصبي وتبكى لسوء بختها . وكان أبى فى عداد الموتى منذ كنت ألعب بالكرة فى الحارة خالى الذهن من النتائج التى تعقب تغيب الآباء . لذلك كله وجدت نفسى مشتاقا إلى الخلاء ، وكانت جدران المبانى فى القاهرة كأنها تصدم نظرى وتسد على طريق التنفس .. فحننت إلى الأفق الواسع والأماكن غير المزعومة ، وإلى التقائى مع نفسى وجها لوجه وأنا جالس على إحدى صخور الشاطئ .

ويوم نزلت الإسكندرية كانت ريح الخريف تهب عليها بنشاط ..
كانت كأنها تعبر البحر أفواجا لتحمل المصطافين على المظلات والرحيل إلى الجنوب مرة أخرى .

و كتمت فرحة خامرتنى حين رأيت المدينة على هذه الحال . استطعت أن أحصل بسهولة على غرفة بسرير واحد فى لوكاندة متوسطة الأجر . حسبت المبلغ الذى استصحبته فرأيت أنه يكفى عشرة أيام ، فحمدت

الله لأن عشرة أيام في رحلة موفقة أجدى على الصحة والروح من شهرين تتخللهما المتاعب .

وفي صباح هذا اليوم تأخرت في حجرتي قليلا فلم أخرج كما دقي ، مع أنني نمت في الليلة الماضية نوما هادئا جدا . ونمت بعد العشاء ولم يرقد الأكل على قلبي ولم تتخلل ليلتي أحلام ثقيلة .

في هذا الصباح الذي أحدثك عنه أحسست راحة مسترخية ، ولذة في التمدد ، وإقبالا على قراءة قصة كنت اشتريتها بالأمس من بائع متجول ولم أقرأ فيها حرفا .

فبقيت متمددا في الفراش وسحبت الكتاب من الوسادة وضغطت على زر الجرس فانفتح الباب في اللحظة التي كنت أقرأ فيها كلمة « الفصل الأول » المكتوبة بأحرف فارسية جميلة ، قلت للخادم بعد أن أطل بوجهه النوي الوسيم الملامح :

— أريد أن أتناول إفطاري هنا ، ولا تنس الشاي من فضلك .

وارتد الباب واسترسلت في القراءة ، ولم تمض دقائق لعلها كانت خمسا حتى دق الباب على بعنف غير عادي ، وأطل الخادم مرة أخرى بوجهه الوسيم الملامح وقال بسرعة :

— القاهرة تطلبك بالتليفون .

وترك الباب مفتوحا وانصرف .

وخرجت في ملابس نومى وفي رجلى شبشب أجبره إلى حيث التليفون . ولم أكد أصل إلى هناك حتى رأيت سيدة تجرى في أعقاني وعليها روب وفي رجلها حذاء . كان صوت كعبه على الأرض ينيى عن مدى سرعتها ، ولم آبه لها بالطبع حتى التقينا هناك . وفي اللحظة التي رفعت فيها

السماعة وبدأت أقول « ألو » كانت هى تتساءل عمن طلب من القاهرة .
وكان هناك ليس فقد استدعى بعض الخدم نزيل الحجرة نمرة « ٤٠ »
واستدعى بعضهم نزيل نمرة « ٤١ » ، ولعل السر فى ذلك راجع إلى خطأ
الخواجة فى إملاء الرقم أو فى ترده بين الرقمين .
وكانت تجمع أطراف الروب على جسمها بفتنة وأنا ما أزال فى انتظار
إتمام المكاملة ، حتى إذا ما تيقنت أننى أنا المقصود ابستمت فى شئ من الخجل
وخيبة الأمل معا قبل أن تلقى على نفسها نظرة فى المرآة المعلقة فى الخائط
المقابل ، وانصرفت لشأنها .
واطمأنت على الأحوال فى القاهرة ، وبادلت الذين اتصلوا بى بعض
إرشادات وتلميحات ، ثم رجعت إلى غرفتى وجعلت أقطع الوقت بالقراءة
حتى جاء الطعام .

* * *

فى عصر اليوم نفسه ذهبت إلى الكازينو المعتاد الذى كنت أقضى فيه
ساعات طويلة ، كان الجو فى هذا اليوم أميل إلى البرودة حتى أن معظم
النوافذ الزجاجية فى مقدمة المكان كانت مقفلة تماما ، وكان البحر نائرا
يصنع بأمواجه كهوفا ومغارات وتلالا من الماء ، ورغوة الحركة تطفو إلى
السطح كأنها حليب أبيض .

وجلس فى الصفوف الأولى وطلبت فنجانا من القهوة ، ولم يكن
المكان مزدحما فتخيلت أننى أتنفس بسهولة ، وألقيت بحواطرى إلى
البحر .. إلى العالم المائى العظيم العميق المجهول الذى شهد بدء الخليفة أيام
كانت ظلمة وماء فحسب ، ثم شهد البواخر والغواصات .. وفتحت
القصة بشروء لأكملها ورشفت رشفة من القهوة ، واستأثرت حوادثها

بانتباهي على الرغم من أن امرأتين يونانيتين إحداهما صبية والأخرى عجوز كانتا تتناقشان بصوت عال حول موضوع لا أعرف معناه .. ومضت فترة من الوقت لست أدري قدرها لأن موسيقى البحر الصاخبة في هذه الفترة كانت متمشية مع الوقائع التي أقرأها كما تتمشى الموسيقى التصويرية مع حوادث الشاشة .

غير أنني أفقت على صوت يخاطب « الجرسون » ويقول له : خشاف من فضلك .. أرجو أن تسرع » .

وتذكرت الصوت وكان قريبا مني ، وحين نظرت لم أروجه صاحبه لأنه في هذه اللحظة كان قد اختفى خلال جريدة يومية فلم يتح لي إلا أن أرى ذوائب شعرها من فوق .

بيد أنني كنت واثقا من أنها جارتى في الفندق ، التي قابلتها في هذا الصباح عند التليفون ، وكانت وحدها وكان وجهها لا يزال مدفونا بين صفحتين من الجريدة . فطويت قصتي ووضعتها على المنضدة ، وجلست أنظر ..

فظهر الوجه فجأة فصيح تخميني ..

وكان البعد بيننا غير كبير فأومأت لها بالتحية ، ثم انصرف كل منا إلى ما كان فيه غير أن الطمأنينة لم تعد تظللنا . كنت قلقا وأحسست أنها قلقة .. وهممت أن أتقدم فأجلس إلى منضدتها وأبادلها الحديث لكنني عدت فترددت .. أليس من الجائز أن يكون زوجها في الطريق إلى الكازينو بعد أن سبقته ، فهي متزوجة وخاتم الزواج في يسراها ؟ وأليس من الجائز أيضا أن تعتبر عملي هذا إقداما جريئا فأفتح على نفسي به باب الملامة ، وأنا اليوم شاب قد جاوز الثلاثين وينبغي أن تتسم أعمالي بطابع

غير طائش ١٩.

ونظرت إلى البحر وكان فوارا ، وعدت بعد شرودى ففتحت الكتاب .. وكانت أول كلمة وقع عليها بصرى هى كلمة « اللقاء » . ولم أسترسل طويلا فى القراءة لأننى أحسست قلقلة أحد الكراسى حين قامت الحسنة وفتحت نافذة زجاجية تطل على الماء . وتدفق الهواء كأنه يربخ وكان يحمل رشاشا لا يحتمل فى بعض هباته . وتعذر عليها أن تقرأ وأن تضبط وضع شعرها على رأسها ، فابتسمت ابتسامة من أخلف ظنه ، وقامت من جديد لتقل الشباك ولكن يديها الطريتين لم تقدرا على ذلك ، وقبل أن تصفق ليحضر الجرسون كنت أنا بجانبها أعالج إقفال النافذة ، فشكرتنى ، وأومأت لى بالجلوس فى اللحظة التى كانت تستلقى فيها على مقعد مقابل .

* * *

وطلبت أنا خشافا لأدفع حساب الخشافين . وألقيت نظرة على الصفحة الأولى من الجريدة التى على المنضدة ، فقد كنت لا أقرأ الصحف حتى لا تقع عينى على سوق الأوراق المالية فيها .. وألقيت نظرة على عنوان الكتاب الذى وضعت على المنضدة . ثم درج بيننا الحديث .

لم يكن عندهم وقت لقضاء الصيف كله أو بعضه على أحد الشواطئ فى هذا العام ، لولا أن حادثا هاما دفعهم إلى الفرار بهمومهم من العاصمة .

فقلت بينى وبين نفسى : ولوزود الله البحر بالقدرة الكافية على ابتلاع هموم الناس ، فلماذا يعانى المقيمون على شواطئه لىالى الهموم ؟

وجعلت أتفرس ملاحمها الصغيرة .. كان كل شيء في وجهها قد خلق بحساب إلا شعرها الغزير المنفوش من آثار معركة النسيم . وزمت شفتيها في شبه أسفى وهى تفسر مصدر همومهن في هذه القصة : إن زوجها فقد ابنه الشاب في حادث .. حادث أليم .. وكان طالبا في الجامعة . فنظرت إلى فستانها الأحمر ذى الزهور البيضاء ، فأجابت كأنها ترد على استفهامي :

— « ابنه .. من امرأة أخرى ! »

وأدنت ملعقة الخشاف الصغيرة من فمها الذى لا يكاد يسعها ، لأنه كان في ضيق الخاتم .. على حين سرحت تجاه ولده .. حتى يلبس السواد ! واستحوذت على أفكاري مرة أخرى حين استطردت :
— لقد تأخر كثيرا في العاصمة .. تأخر أكثر مما كنت أتوقع .. لذلك كنت ترأى قلقا وقت الصباح ساعة طلبت خطأ لأرد على « الترنك » . سألتها : وهل ستقيمون هنا طويلا ؟

فأجابت : « ذلك الأمر ستقرره النقود وليس هناك من يشاركتها الرأي فيه ! »

وضحكنا ، وأشارت بسبابتها الطويلة البيضاء إلى حادثة في صدر الصحيفة شغلت الرأي العام في ذلك الوقت ، حتى أفاق الرأي العام نفسه وجعل يتساءل : لماذا هو مشغول هكذا بهذا الحادث ، مع أنه ليس نادر الوقوع ؟ وكان الحادث خيانة زوجية انتهت بقتل الزوجة بيد العشيق .. كأن الجريمة والقصاص وكلا إلى شخص واحد .

وقرأت الحادثة بسرعة وعلامات اشمزاز بادية على وجهي ، حتى إذا ما فرغت رأيت عينيها تطلبان الحكم في لفة على موقف العشيقين . فلم

أتكلم ، فقالت باشمئزاز يخالطه رعب :

— شيء فظيع .

— أى شيء تقصدين ؟ الحادث محتو على أشياء كثيرة .

فأجابت وهى تعض على أسنانها :

— القتل .

فهزرت رأسى وكأنتى لا أوافق على شيء لكن عينيها ظللتا تطلبان رأى
فى خبث وإصرار ، فقلت :

— هى الزوجة ...

— والزوج .

— لا بالطبع .. لكن كل القرائن تدل على أنه مهمل . اعقلها وتوكل
يا أستاذ ، أما الفوضى فإنها تؤدي إلى ..

— إلى الفوضى .. وليس هناك مصير أسوأ من الفوضى نفسها ..

لكنى عدت فقلت مغالطاً أو ممتحناً :

— لقد نسينا شيئاً مهماً يا سيدتى ، هو أن القلوب كائنات لا يمكن
أن نعقلها ثم نتوكل . لم يستطع إنسان على وجه الأرض أن يوجه قلبه ..
القلوب هى التى توجه إلا إذا كانت السيارة هى التى توجه عجلة
القيادة .

فاستغرقت فى ضحكة مرحة رج بها المكان الخالى ، حتى جاء
الجرسون وجعل يجمع الأطباق الفارغة وعلى وجهه ابتسامة مفهومة .
ولمنا على الأفق بعد قليل موكب الغروب ، فنظرت إلى ساعة
معصمها واستأذنت ، وإن عينيها تقولان : أود أن أراك ، وإلى اللقاء .
وانصرفت وبقيت وحدى ..

وفي آخر السهرة دخلت الحجرة وأشعلت النور .
ولأول مرة وأنا أستلقي على فراشي لاحظت أن بين الغرفتين بابا
وسطا .. مقفلا مصادرا . وأن مرآة الزينة في حجرتي تسد هذا الباب .
وجعلت أتخيل وما أكثر الخيالات في ليالي الوحدة ، خصوصا عندما
يكون هناك طارق جديد يدق باب القلب ..

تخيلتها راقدة وحدها في ثوب أبيض شفاف كأنه من لعاب الشمس ،
تحلم .. وتحلم ، أو جالسة تقرأ ، أو مستعيدة كلامنا وقت العصر . وأنها
وحدها .

ولم أتم بل لم أحس بوادع نوم قط ، فعللت هذا بعلل كثيرة ، ونخيل إلى
بعد قليل أني أسمع حركتها في الحجرة .. وقع أقدام ونقل كرسي وأشياء
مبهمة . فنقرت بيدي على باب الوسط بحركة كأنها غير مقصودة ، فإذا
بها ترد النقرة بمثل الحركة . وعدت فعادت ، وإذا بي أسمعها تقول « ألم تتم
حتى الآن ؟ ثم ! »

ونخيل إلى أن النوم سيمثل لأمرها ويجيء ، لأن المخدر سرى في
أعصابي من همسها في الليل :

— ثم يا عزيزي .

— حتى تنامي .

— سنلتقي غدا ؟

— ربما .

وهمت أن أقول لها أكثر من ذلك ، وأن أطلب منها أن ينتقل أحدنا إلى
الآخر ، لكن السكون الذي ظلل المكان كان ينم عن أقل حركة ..
وفي اليوم التالي تكلمنا كثيرا ، وبدأ لي أننا على أبواب حب عنيف ..
(حلم آخر الليل)

وشكت لى أن زوجها لم يطلبها من القاهرة ، وأن قلقتا يخامر قلبها عليه .
ورسمنا خططاً للمستقبل ، فيها أنها ستكتب إلى أحد تطلينى بالتليفون
فى عملى بعد انقضاء أيامنا فى المصيف .. ونسينا معا الحوادث التى تكلمنا
عنها أمس ، والتى لا تزال الصحف تفيض فى نشر أسرارها ، لأن وقوع
الحوادث لا يعنى عدم تكرارها ، والعظة التى تحملها الحادثة كالترىاق
الذى تحمله السموم ، وهل تستحيل السموم فى عصر من العصور إلى
ترىاق خالص ؟

* * *

عدت مساء هذه الليلة بعد الثانية عشرة وكل شىء فى جناحنا نائم ،
واثنان من الخدم جالسان يشربان الشاي . غريب !
وألقيت نظرة إلى شراعة الحجرة المجاورة وأنا فى الطريق ، فوجدت
النور ساطعاً فيها .. إنها لا تزال يقظة .
وأتييت عدة حركات وأنا أخلع ثيابى ، وغمغمت بغناء خافت وأنا
أستلقى على الفراش ، ولكن حركة واحدة لم تأت من داخل حجرتها .
وبعد ربع ساعة تكرر الموقف .. سمعت دقة على باب الوسط .. دقة
غير مقصودة كأنها من يد بسطها صاحبها وهو نائم ، ففعلت مثلما
فعل .. ثم انتظمت الدقات ، ثم بدأ الهمس :
— هل كنت نائمة يا عزيزتى ؟
فجاءنى صوت مبحوح يقول :
— نعم .

وقلت بعد ذلك ما لا أذكره الآن ، ولكن لم يكن هناك رد
إلا بطرقات منغمة تحاكي دقات البنات على جلدة الطبلية . ثم توقف الدق

فجأة وسمعت جدلا واحتكاكا وتحرشا بين رجل وامرأة ، ثم نزاعا كأنه عراك انتهى بأن سمعتها تقول لزوجها :

— الذى لا شك فيه أن كلا منكما كان يظن أن امرأة وقعت فى الشبكة ، تبا لكم أيها الرجال !

ثم سكن كل شيء وكأنما رجاها ألا تثير ضجة . أرجع أنها انتصرت عليه وأنها كانت نائمة واستيقظت على الطرقات ، وخيل إلى أنها ناما نوما هادئا فى الوقت الذى ظلت أنا ساهرا أسترجع الماضى وأحسب ألف حساب ، حتى غلبنى النوم .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة حين استيقظت من نومى ، وقرعت الجرس فطلبت الإفطار . وكنت كلما طرق على الخادم باب غرفتى أتوقع أنه سيقول :

— إن شخصا ما يريد مقابلتك .

ومرت ساعة ثم ساعة ثم ساعة ، وقارب الوقت أن يكون ظهرا ، وبدأ الحر خائفا لا يكاد يطاق ، فاغتسلت وأخذت فى ارتداء ثيائى قبل الخروج .. وأخيرا سمعت صوت أحد الخدم ينادى على زميله ويقول له :

— عبده .. عبده .. ساعدنى على حمل هذه الحقيبة الثقيلة ، نعم إن

نمرة « ٤٠ » خالية منذ الصباح . ألم تعلم ؟

وتنفست الصعداء ، وقصدت إلى الكازينو بعد الغداء فجلست مكان البارحة . وكان البحر فوارا يصنع بمائه تلالا ومغارات ، ويصب على حوافها الحليب ، والنوافذ الزجاجية فى صدر الكازينو مقفلة جميعا ، واليونانيتان تثرثران فى هدوء ، والعجوز لابسة السواد ، والمنضدة التى شاركنى الحسناء الجلوس إليها كان عليها رجل فى الخمسين يشير بالقلم فى

حركات توافق همساته ، كأنه يجمع أرقاما ..
والخريف يهيب بالناس أن يرحلوا .
وفي القاهرة ظللت أنتظر بلا فائدة .
وهذا هو الصيف الثاني يقارب على النهاية وفي نيتي أن أقضي في
الإسكندرية أسبوعا واحدا ، فهل سألقاها هناك ؟
وهل سيتحدد صيف كان مثل سحابة الصيف ؟

امراة ومصباح

فى حياتنا نوع من الضرائب يستغرق دخلنا كله وقد يزيد عليه . ونحن مع ذلك — وفى غفلة لذيدة — ندفعه مسرورين . والسر فى ذلك هو أن قانون الحياة يسلكنا فى صفها ويربطنا فى الطاحون ونحن لا نشعر . لم تكن العاصمة الكبيرة — مدينة القاهرة — تشعر بمأساة هذا البيت الصغير ذى الطبقة الواحدة .. القائم فى تواضع ذليل واستقامة غير محدودة .. فى حى قريب من مدافن النصارى وسفح الصحراء وجامع عمرو .

عانى المالك فى اقتناء الأرض التى بناه عليها مشقة تقرب من مشقة الخلق ، فقد ظل يقطع ثمنها من دخله الصغير خمس عشرة سنة ، ثم أحاطها بالسلك ثم بنى فيها بالطين بعض مبان .. ثم زحفت المساكن وتعددت ألوانها وأصبح الحى أهلا بالصبيان والقطط . وعلا فيه صراخ الباعة طول النهار وارتفعت فيه أصوات الراديو . فنهض أخيرا ذلك البيت ذو الطبقة الواحدة القائم فى تواضع ذليل واستقامة غير محدودة .

وفى يوم من أيام مارس من سنة .. انتقل المجاهد مالك هذا البيت إلى رحمة الله ، وظل وابور الزلط متعطلا يوم وفاته لأنه هو السواق ، واجما كأنه منع من السير فى الجنازة أو حزينا كما يحزن الجواد على فقد الفارس . وقد استمعت زوجته إلى « تلخيصه » لحياته كما يفعل كثير من الناس قبيل الساعات الأخيرة ، حين يحسون بطرق غير معروفة أنهم سيرحلون: — الحمد لله .. تعبنا كثيرا ، ولكن .. لقد عملنا شيئا ما .. وأنا إذا

رقدت مرتاحا فلأنسى وفقت في أن أجعلكم تملكون هذه الأرض
الواسعة .. بقعة تسكنون فيها . الله .. لا أحد يطردكم من بين الحيطان إذا
ضاقت بكم الأحوال .. أنت والبنات الثلاث تملكن سكنا .. أما الباقى —
وأشار نحو السماء — فله من يدبره ..

ثم سكن إلى الأبد . واهتز البيت ذو الطبقة الواحدة بأربع نسوة تبكى
على رجل ، أو تبكى على دخل ، أو تبكى على الدخل والرجل في وقت
واحد .

ثم سكن البكاء واستأنفت الحياة سيرها كما هو طبيعى .
ولاذ النسوة الأربع إلى حجرة بنيت فى السطوح ، وأجر الدور
الأرضى لساكن ما لتكفى أجرى البيت مطالب الورثة . وخلعت ملابس
الحداد وعادت الابتسامة إلى الأفواه وأصبحت الصلة بين السوارث
والموروث متمثلة — فقط — فى الجوافة والبلح والفطير بالينسون الذى
يوزع عند « طلعة رجب » .

وتقدم خطيب للبنات الكبرى .. عامل ميكانيكى صحيح سليم يتكلم
بثقة ويغمز بعينه .

وأعلنت العروس موافقتها فى حماسة ، ولو أن المهر قليل وزوج
المستقبل يطلب جهازا معينا .

واصطدمت فرحة العذراء بخوف الأرملة من الزمن .. ثم أفهمتها بنتها
أنها صاحبة حق ولها مطلق الحرية فى التصرف .. وأن فرحة « العرايس »
لا تكمل إلا بالأحمر والأخضر والعطر والكحل وأن من حقها أن تخرج
بجهاز .

كانت الأم لا تنشأ إلا سعادتها . وأمام إصرارها رأت من الخير أن

تراجع فأدخلت جارها شريكا في البيت بمقدار الثلث أو بمقدار ما تملكه الكبرى من الميراث وزيادة قليلة .

وتحول المال بعدئذ إلى مراتب وألحفة ونحاس وصيني وأثاث وغوايش وأشياء أخرى . ثم انتقلت العروس إلى بيتها في المدينة فأحست الأم ليلتها بسعادة فوق الوصف . وربما تفوق سعادتها في ليلة أقفل عليها الموروث الباب وقال : ها نحن قد صرنا وحدنا .

وكأنما كان السخاء الذي بذلته الأم في جهاز ابنتها الكبرى إعلانا بلا قصد عن العروسين الباقيتين . فما كادت الوسطى تبلغ حد النضوج حتى تقدم لها أخو العروس السابق .. أخو الميكانيكي . فتى كأنه عود من الخيزران مهنته (ترزى) يرشحه أهل الصنعة ليكون أمير هذه الصنعة . ولعل بينه وبين البنت الوسطى هوى مدفونا ، لأن حماسة العروس كانت أشد توهجا من حماسة أختها .

ومشى قانونهم طبيعيا كالشروق والغروب .. فذهبت الأم فورا إلى جارها في البيت وطلبت منه أن يدخل شريكا بالثلثين أو بمقدار ما تملكه الفتاة الوسطى وزيادة ، ثم حولت ببساطة هذا القدر من المال إلى نفس ما حول في المرة الماضية . وأحست الأم بسعادة أقوى من السعادة الأولى لأن المسألة لم تكن في نظرها مسألة تزويج بنات فحسب ، بل شعرت كأنها تستر شيئا عاريا .. يعنى عرضا .

وتهامس أهل الحى بأمر هذه الأم ، وقال ناس : إنها محقة . وقال ناس : بل إنها مخطئة ، فلو كان زوجها يعلم أن البيت الذى خلفه سيحول إلى هذا المال ما بذل فيه حبة عرق ..

على أن هذا كان — على أى حال — مؤهلا قويا للزواج البنت الثالثة .

فما كادت تبلغ حد الإدراك حتى تقدم من يطلب يدها .. كمسارى في
السكة الحديد في البدلة الصفراء كأنه بدر .. يجلب الزبد والفواكه من
الريف الذى يمر به كل يوم ، والدجاج والوز بأثمان زهيدة .
ولم يكن هناك مجال للنقاش فقد تقدمت الأم فى صمت إلى جارها
تطلب منه أن يشتري الثلث الثالث .. وفى اللحظة التى وقع فيها عقد البيع
وقع عقد إيجار الحجرة العليا . وذرفت الأم دموعا دون أن تدرى ،
وعلمت أنها ستسكن وحدها .

* * *

وفى الليلة الأولى أحست بفرحة تخالطها وحشة . وقرض كأنه تحذير
لم يتكامل ، لكن لا مجال فيه للإحساس بالندم .
ثم بدأت تشعر بشيء يخوفها .. كأن حادثا كبيرا سيدق عليها باب
الغرفة الذى يهزه فى الليل هواء الشتاء . وقالت فى نفسها : هل سيموت
زوجى مرة أخرى ؟

واستغرقها بعد ذلك فكر لذيذ .

— آه .. « زينب » فى حضن « محمد » . و « فاطمة » فى حضن
« على » . وأخيرا .. « رقية » فى حضن « إسماعيل » ..
كل بنت تحت جناح رجل . هل فى الدنيا أعز من هذا ؟
ممن إذن أخاف ؟

لكنها دمعت فى سكون الليل حين فكرت فى البقية الباقية من عمرها .
هل تهددها الحاجة أو المرض ؟ إن حدث هذا فإن مرارة الخاتمة ستستغرق
حلاوة البداية وأكثر .

واعتمدت على نفسها منذ ذلك التاريخ وعلى البقية الباقية من نور

عينها . ومن ماكينة الخياطة كانت تأكل .. حقيقة أن رزقها كان يدخل إليها من ثقب الإبرة لكنه كان يكفيها .. والخيز مشيع جدا لمن يغمسه في القناعة .

غير أن بنتها الصغرى — وكانت أكثر أخواتها ترددا عليها لأنها لم تخلف بعد — رأت ذات يوم دلائل الفاقة ترفرف على الحجرة ، وحلة نحاس بها بقية طيخ متجمد لم تأكل منه ، وأمارات تدل على الاحتياج تدرك ولا توصف ، وتعرف حتى ولو تكلم أصحابها عن الرخاء .

فلما استوثقت من أمها أكدت لها أن ظنها مخطئ . وفتحت لها درج الماكينة فرأت فيه جنبيين وعدة قروش . لم تكن في الحقيقة إلا ملكا لإحدى الزبائن ثمن قماش مستشترية الخياطة بمعرفتها .

وبكت البنت الصغيرة التي كانت تتردد على أمها دون أختها اللتين شغلها الأولاد ، لأنها رأت أمها تخطط الملابس على مصباح الجاز بعينين ضعيفتين وحركة مضطربة تدعو إلى الرثاء وتندب بأن الزباين سينصرفون عنها . فنحن دائما نحب الأجير القوى ، هل استأجرت مرة محملا أمنته على حمل متاعك ؟

* * *

وفي صبيحة يوم ما دخلت البنت الصغيرة حجرة أمها .. كان الوقت باكرا والباب غير مغلق من الداخل فانفتح حين دفعته . فرأت مصباح الجاز موضوعا على منضدة الماكينة والأم منكفئة على منضدة الماكينة مستغرقة في النوم كأنها تلميذ أغفى على حافة الدرج .. وهناك قطعة قماش عالقة بالإبرة وطرفها على الأرض . والمقص تحت قدمها عند المدوس .. وذباله المصباح تراقص كأنها تحتضر .

أدركت أن أمها أخذتها سنة من النوم عند الفجر على الأقل ، لأنها كانت تشتغل في الضوء .. فأحسست بألم يحز في قلبها . وعندما أيقظتها لم تستيقظ ، فقد كانت جثة باردة .

وبكت البنت وأطلت من النافذة على السطح وتفقدت كل شيء . وذكرت أن أمها اشتغلت حتى آخر لحظة فلم يكن هناك دقيقة تفصل بين حياة العمل وبين الموت .

ثم تجمعت البنات حول الأم للمرة الأخيرة . وعاد البيت من جديد فاهتز كيوم خرج منه الزوج ، ثم انصرف الناس فخيم عليه السكون .

وفي الليل كان الهدوء أقوى وأشد على البيت ذى الطبقة الواحدة .. والحجرة العليا مظفأة النور موصدة الباب لأن ساكنتها باتت في الخارج . لكن ..

في بيوت أخرى ، قال « محمد » لزينب :
— هل اطمانت على أختان الولد .. أوه .. لكأنك مريضة منذ شهر . هذا هو حال الدنيا . تعالى قريبا منى ..
فالتصقت به في صمت ..

وقال « على » لفاطمة :
— هل أعطيت البنت دواء السعال ؟ هل غلبت الطيخ حتى لا يحمض ؟ .. أوه .. ليس في عينيك بقية للبكاء .. تعالى قريبا منى .
فسحبت عليها الغطاء .

وقال « إسماعيل » لرقية :
— إن خدك ملتهب من اللطم . إنها تنام في قبرها مرتاحة .. فقد اطمانت على مصير البنات . أوه .. خدك ملتهب جدا .

وحين مرت أناامل على خدها أحست بنعومة المرهم ..
وبعد ساعة أخرى كانت البنات الثلاث مستغرقات تماما ..
وفي الصباح الباكر تذكرت كل واحدة منهن شيئا انتفض له قلبها
بشدة .

وفي الساعة العاشرة كانت الكبرى قد وصلت إلى حجرة الأم ، وبعد
دقيقة تماما وصلت الوسطى .

وجلستا مطرقتين لا تتكلمان . وبعد خمس دقائق كانت الصغرى قد
وصلت وبكين قليلا . ثم نظر بعضهن إلى بعض والتقت النظرات أخيرا
على ماكينة الخياطة .

لكن الصغرى صرخت فيهن :

— هل جئتما من أجل ذلك ؟

فقالَت أختاها :

— حتى أنت . هل هذا حرام ؟ إنه أحل من لبن الأم .

يريد أن ينساها

قضى سواد ليله وهو يعدّ خفقات قلبه . قضاها يعدّها ويتدبّر معناها تدبّر شاب يدرس مهنة الطب ، ويقف إلى مائدة التشريح ليعمل مشرطه في جوارح وأعضاء كان يخاف عليها أصحابها هبة النسيم .
وأخذت أفكاره تتضح كلما خطا الليل نحو الأمام خطوة وخطت الحركة في المدينة نحو الورا خطوة عكسية ، حتى لم يعد يسمع جمجمة عربية ولا حفيف سيارة ، وكلها يمرّ من فوق رأسه فتدخل إليه الضوضاء من خلال النوافذ لأنه ساكن في « بدروم » . وحتى الحركة في الحجرتين الآخرين المكملتين للشقة سكنت ونامت . وأمسى جوّ « البدروم » مشبعا بالرطوبة أكثر من قبل ، وذلك لأن الليل خطا خطوة جديدة نحو الصباح .

وخفتت الأصوات في الحجرة الملاصقة التي يسكنها طالبان من طلبة الأزهر ، وحمى بينهما وطيس الجدل قبل أن ينأى حول مسألة لا يدرى طالب الطب أفتقية هي أم نحوية ؟
وأخذت أفكاره تتضح تحت رواق الليل حتى لكأنه يلمسها لمسا . واستمع من جديد إلى خفقات قلبه فاسترسل معها وعاش كما تسترسل مع النغم حتى تخال أنك سابح فيه . ثم جعل يسأل نفسه عن عدد خفقاته منذ دبت فيه الحياة حتى جاوز اليوم سن العشرين ، وإلى أى مدى ستدوم هذه الخفقات ؟ وكم من ملايين الملايين سيبلغ عددها يوم الممات ؟! يا له من عضو نشط يسهر حتى ونحن نيام !

ثم أمسك لأنه انتبه إلى دقائق ساعته من تحت المخذة ، وابتسم حين رأى بين الجهازين تشابها عجيبا .. كلاهما يدق !! هذا يدق فيجعلنا نحس الوقت لأننا نعيش ، وذاك يدق فيجعلنا نحصى الوقت لنعرف كم نعيش ؟! وتخلصت أفكاره من استطرادها الطارئ فعدت إلى ما كانت فيه من قبل . ذكر القلب وخفقات القلب ، فاستحضر صورته كما رآها في حجرة التشريح ، له أذينان وبطينان ، وأوردة وشرائين ، وأشياء أخرى .. ولكنه وثب وثبة كبرى فخرج من دنيا العلوم إلى دنيا العواطف ، وذكر اليوم الحاسم الفعّال في علاقته معها ثم بدأ يستعرض القصة .

كان يريد أن ينساها ولو أن كل شيء يذكّره بها . وهذا هو الأسبوع وقد دارت دورته وجاء صباح الخميس ..

إذن فهو لم يرها منذ أسبوع . منذ الخميس الماضي بعد أن أمسى المساء فلقيها في مسكنها .. وبعد أن قضى معها فترة من الوقت هبط درجات السلم المظلم الدائر وقد صبحّ عزمه على ألا تطالع عيناه معارف وجهها الحلو مرة أخرى ولو أحرقت أوصاله النار . ولم تكن هي تعلم بأنه اتخذ هذا القرار وإلا كان من الجائز جدا أن تلقى بنفسها من النافذة على مرأى منه حتى تضمن أن يسجى جسدها بيمينه .

ومرّ الأسبوع كالحا ثقيلا كان فيه أشبه بمن يعيش في دوامة ، لكنه كان مصرا على ألا يرجع خطوة واحدة إلى الوراء لاعتبارات شتى أهم ما فيها أنه يريد أن يضع نهاية لهذا اللون من الحب ، وأنه جعل رجولته في كفة وجعل السران في كفة أخرى ، وأنه أراد أن يضع رجولته كذلك في بوتقة تجربة عالية الحرارة ليستيقن من أنها ستثبت على الصهر .

وهكذا مرّ الأسبوع . وخرج في صباح يوم الخميس آخذاً سمته إلى الكلية ، وكان منشراح الصدر نوعاً ما لأنه لم يحس ضعفاً خلال المدة التي انقضت وإن قاست نفسه ضروباً من الحنين وألواناً من الأفكار .
والتف الطلبة حول منضدة التشريح في الغرفة وبدأوا يستلّون أسلحتهم ليعملوها في جوارح خاف عليها أصحابها هبة النسيم ، وكان بين أيديهم في هذه الحصة .. قلب !

وقلماً يسأل الطبيب وهو يعمل المبضع في هذا العضو العظيم ، وعاء العواطف ، قلماً يتساءل : ترى قلب من هذا ؟ وإن تساءل مرة أو مرتين فغالبا ما تتخلف الثالثة . وإذا اقتنعت بمنطقى فإنك ستسلم باستحالة أن يسأل الطبيب نفسه قائلاً : أقلب امرأة هذا ، أم قلب رجل ؟ وبعد ذلك يغمد في القلب السلاح بنفسية من يغمد المديّة في جلدة البطيخ . وهذا هو ما يجري في حجرات التشريح .

لكن الذي حدث صباح يوم الخميس كان غير ذلك ، لأن أحد الطلبة ممّن التفّوا حول المنضدة تساءل بعد أن علت شفّتيه ابتسامة خبيثة : ترى قلب من هذا ؟ فهمس في أذنه جاره الأيمن وكان كثير المرح يقول له : « ولا القلب إلا أنه يتقلب » هذا هو كل ما تخلف في ذهني من روااسب المدرسة الثانوية .. هل تعرف صدر هذا البيت ؟ .. ما لنا ولصاحب هذا القلب أيها الزميل ؟ فقال الأول : حسبتك تعرف صاحبه . فابتسم الجار الأيسر ، وهو صاحب القصة ، ثم مال إليهما مستغرباً موضوع الحديث فما كان من الطالب الأوسط إلا أن همس : إنني أعرف صاحب هذا القلب !!

ثم انقطع الحديث بعد ذلك .. وبدأ الطب يسيطر على الحقوق التي

فرضتها الحياة للجسم ، والقدسية التي فرضها الموت للأعضاء ، فأعملت في القلب المشارط وحمى وطيس الدرس فنسى المتسائلون ما كانوا بصدد من قول ، لعلّ بعضه كان نفحة شاعرية ، وبعضه الآخر كان دعابة من دعابات الشباب .

لكن الطالب الأوسط ما لبث أن أعلن بعد انتهاء الدرس على مسمع من المجموع أنه يعرف صاحب هذا القلب . فأقبلوا عليه يستفسرون في فضول مختلف الدرجات ، فقال وهو يضحك ملء شديقه : إنه قلبها .. قلب تلكم الحسناء .. حسناء حارة البغايا .. في درب الخوخة نمرة ٥ .

هل فيكم من يعرف اسمها ؟ .. كان اسمها جمالات !
فضحك بعضهم ضحكة ماجنة منعمة : « هي .. هي .. ليرحمها الله ! »

كان يجاهد نفسه لينساها ولكن الأقدار أراحته من هذا العناء .
لقيها يوم الخميس وودعها دون أن تشعر بوداعه ، ثم حمد لنفسه في الخميس التالي أنه ثبت على التجربة وهو لا يدري أن يدا أقوى من كل شيء ستحول بينه وبينها إلى مدى لا يعلم غايته إلا الله !!

وقضى سواد ليله وهو يحصى خفقات قلبه في ظلال السكون ، ويسترجع صورة قلبها تحت وميض النصال ، فخيّل إليه أنه كان يخفق بحبه حتى وهو في هذه الحالة ، فاستنطق الأمر وكاد يصرخ في ظلام الغرفة ..
ثم أمسك ليسأل نفسه : أين موضع الحب من قلوب الناس ؟ وهل تعترف به أطراف المباحض على موائد التشرّيع ؟ ألا ليتني أعلم ؟

وهم بأن يصرخ مرة أخرى ولكن شخير الشيخ « أبو المعاطي » في الحجرة الملاصقة انتهى إلى سمعه فنحّاه عن تيار أفكاره شيئا ما ، حين قلب

حياة جاره في نواحي فكره وتمنى أن تتاح له هو مثل هذه الحياة .. الحياة الباردة التي لا يصرخ في نواحيها شيء .

لكن جمالات ، حسناء درب خوخة ، ولجت أبواب فكره مرة أخرى : إنهم لا يعلمون أنه الشخص الوحيد الذى وفق فالتقى بالشخصية الشريفة في جسدها المتبدل حتى أصبح هو في حياتها أشبه بالواحة الوحيدة في صحراء دنياها الواسعة الجديدة .

دخل حجرتها أول مرة وهو متأبط ذراع الشيطان ، فدخل يقهقهان ثم خرجا يقهقهان . وتكررت التجربة ، لكن طالب الطب خرج في المرة الثالثة وهو حزين سادر حين اكتشف بين أنقاض الجسم وخرائب المادة روحا جميلا شفافا اندفن تحت هذا الركام .

وأخذت العلاقة بينهما تمنح نحو الصداقة رويدا رويدا . واختلط الزيت بالزئبق على الرغم من كل شيء ، لأن طالب الطب كان يعتذر لنفسه كلما دفعه إليها قلبه متعللا بأن الزيت والزئبق من المحال أن يمتزجا ، وسيبقى كل منهما منفصلا عن صاحبه وإن طالت مدة التجاور .

وكان يلقي من أمره عسرا عند كل افتراق لأنها كانت تشبث به تشبث الغريق بالفلين وتكاد تتعلق بأذياله كما تتعلق الهرة الأنيسة . لكنه قرر فجأة ألا يلقاها ..

وكان ذلك عقب تقديم هدية إليها . ولم يكن هو من اليسار بحيث يستطيع أن يقدم إليها كثيرا ، ولم تكن هي من الاستغلال بحيث تطلب منه أى شيء . فأحس حجلا وحسرة حين تخيل أنه يقتضيها ثمن حنانه القلبى بطريقة « المقاصة » فكأنه يدفع ثمن العطف متعة .. ومن أجل ذلك قدم إليها هدية !!

كان خاتماً جميلاً فيه ثلاث حبات من الماس ألبسها إياه وهما مستغرقان في الحديث ، فلما انتهت إلى ما فعل شهقت سائلة مبهوتة وإن أشرق وجهها النحيف بنور فرح ضئيل قالت : « أهو لي ؟ .. هل أستطيع أن أرفضه ؟ .. أخشى أن أغضبك .. أو أن أرهقك » .

ثم تبين له بعد ذلك أنه فعل أمراً منكراً ، لأن البون شاسع بين كف أمه والكف التي تفتحت به الآن . وقامت في ذهنه قضية معقدة لأن الموازنة بين المرأتين في هذه اللحظة جعلته يضع جمالات في نفس المكان الذي يضعها فيه كل الرجال . وكاد ينكر نفسها العظيمة التي طمرت تحت أنقاض الجسد بفعل أيدي الناس !!

ثم لجّ به الفكر حتى وضع المرأتين متجاورتين فرأى أمه الرقيقة وعلى رأسها طرحة سوداء تستدير مع استدارة الوجه وهي راكعة عند المدخل على سجادة من الحصير . ثم رأى جمالات وقد تناثر شعرها في فوضى مثيرة وقد تكون مريبة ، فهي امرأة تتزين في كل يوم عشرين أو ثلاثين مرة ، وتعرف دخلها بعد إحصاء عدد مرات الزينة !!

وبعد .. فهذا الخاتم يحمل ذكريات عزيزة . حملته أمه إياه ليصلح بعض فصوصه التي انخلعت من مكانها ثم يعيده مع من يراه أهلاً للحمل الأمانة .. لكنه خان الأمانة ، وسيقف بعد ذلك موقف الكاذبين حين يخبر أمه في رسالة أن الخاتم قد فقد وأنه حزين يشعر بالإثم ويطلب المغفرة .

* * *

وانقضى أسبوع على هذا الحادث ، ولعلها كانت تنتظره في كل مساء لكنه تخلف ثم وقعت الكارثة وشربت حسناء درب الخوخة السم في كأس من الشراب دسّه لها خليل ربما كانت قد عفته بضغطها على قلبه أو ضغطها (حلم آخر الليل)

على جيبه أو ضغطها عليهما معا ، ونقلت إلى المستشفى وغسلت معدتها
لتخلص من السم ، ولكن الماء تسرب إلى صدر شقى فأشقى وخدع
فخدع ، فالتبث رثاها كأنما شَبَّ فيهما حريق .. وركبها الهليان وهو
وائق أنه كان موضوع هذيانها .

وها هو ذا الليلة يحصى دقائق قلبه ويتحسس في ظلمة الزمن يوما
سيكف فيه عن الخفقان لأن موتها ذكره بالموت .

ثم مال ميزان المعركة أخيرا وانتصرت الحياة فبدأ يفكر في طريقة
السلوان ، ونزل من فراشه وتحسس زر النور فأضاء الغرفة ..

وجلس على مكتبه وأمسك القلم كأنما أمسكه ليكتب شيئا ..

لكن التفاتة حانت منه إلى خزانة الكتب فرأى على حافتها العليا شيئا
تعلق به بصره ..

ارتاح قليلا وأحس أنه إن قلق يستطيع أن يجد هنا قولاً للهدوء !!
كانت عيناه عالقتين بمجموعة وضعت على أعلى الخزانة ، فرأى عظمها
الخواوي نهاية لكل رأس ، والعينين بركتين ، والفم تجويفا قبيحا ، والأنف
مدخلا يوحى بالفناء ، فقال في نفسه : هيه .. إنها هي الأخرى مجموعة
امرأة .. لأنها صغيرة الحجم ..

وابتسم في حسرة وهز كتفه برفق ثم قال : جائز .. جائز أنها كانت
مثل جمالات . من يدري ؟

ثم أطفأ النور وتحسس طريقه إلى الفراش مرة أخرى .

زوجة مثلها

لم ير في حياته امرأة كثيرة الغفران ، متناسية لأخطاء زوجها مثل هذه الزوجة .. كانت على حدة طبعها وفرط رقتها وحساسيتها تؤثر أن تكون مهزومة في معظم المعارك ، وترى أن بعض الهزائم في حياة الزوجين أعظم فخارا من أكايل النصر . فبعد كثير من الخلافات كانت تنزوي في ركن الدار تذرف الدمع وتعد الحصى ، أو تعبث بعود في تراب الأرض ، حتى إذا ما سألتها ابنتها الصبية — وهو أعز شيء عليها — عما عسى أن يبكها ، ولدت على فمها ابتسامة بددت كل هذه الغيوم ، ثم لا تزيد أمه على أن تربت كتفه أو تلثم خده ، وهي تقول بصوتها المنهوق : « لا شيء .. لا شيء .. لا تتعجل على حمل الهموم فأنت لا تزال صغيرا » .

لكن هذا الصغير كان يؤمن بينه وبين نفسه أن قلبه قادر على حمل آلام أمه ، إن لم تكن كلها فهو قادر على حمل شيء منها . وعندما كبر أدرك أن طاقة القلوب لا تتفاوت أبدا ، وإنما تتفاوت طاقة العقول فحسب . بل ربما كان قلب الصبي أقدر على اختزان المساءة والمسرة منه عندما يصبح رجلا عاقلا . ولو كانت أمه تدرك ذلك في هذه الفترة التي وقعت فيها حوادث القصة ، لاتخذت من قلبه مخزنا تودع فيه همومها .

لكن .. لعلها كانت تخاف عليه .. فقد كانت تراه يبكي في صمت عندما كانت تنكت الثرى بالعود أو تعد الحصى من الجرن ، فإذا ما قست عليه بكلمة خوفا على صباه الطرى فر من الدار إلى الخلاء حيث يلوذ بظل إحدى الأشجار ، ينسى همه بجمع الصمغ ، أو مطاردة الكائنات الصغيرة

التي تخوم حول كل نبت .

أما أبوه فكان رجلا ضخيم الجثة ، تبدو عليه القوة والمهابة . شعرات شاربه الأسود المسترخي كأنها مصنوعة من الأسلاك لم تتخللها شعرة بيضاء .. وكان أكلولا يفاخر بأنه أكلول ، وشديد البطش بامرأته ويفاخر بأنه يفعل ذلك ، وعندما كان يصرخ في وجهها لسبب ما كان الصبي يراها وهي تكاد تذوب مثلما تفعل قطعة الزبد إذا وضعت على النار . وكان يخاصمها كثيرا ، فإذا دخل الدار وأراد شيئا طلبه وكأنه يوجه الأمر إلى الهواء ، أو إلى « جنى » من شياطين سليمان فيقول مثلا : « الغدا .. الملابس النظيفة .. شال عمامة آخر غير هذا .. » فتسارع الزوجة إلى إجابة هذا المطلب في صمت مطبق .. وكأنها آلة .

ولما دخل عليها أخوها ذات يوم ورأى آثار الذل على وجهها ، ثار ثورة كبيرة واتهمها بأنها لا كرامة لها . فسألته وقد شحب لونها :
— ولماذا أنا فاقدة الكرامة ؟

— لأنك تعاشرين مثل هذا الرجل .
فأجابت في هدوء :

— طيب .. وماذا تريد مني أن أفعل ؟

— أن تغرجي معي ، فإن لك أهلا .

فردت بهدوء أكثر ويدها على ذقنها :

— أخرج معك لأعود إلى هنا ثانيا ، أو أخرج معك لأبقى عندكم إلى الأبد ؟

وكان الصبي على مقربة منهما .. يعيث برمل ندى يعقد منه بناء على هيئة ضريح لأحد الأولياء .. ولما سمع النقاش جمدت عيناه على وجه خاله

وظل — كما كانت أمه — في انتظار الرد . لكن الرجل ظل يتلفت في كل اتجاه قبل أن يتكلم ، وأخيرا قال لها وهو يهز كتفيه :

— آه .. يظهر أنكن لا تحبين إلا من يقسو عليكن .. إننى أبذل للننى فى دارى كل مودة ، وهى مع ذلك تحزم ملابسها إلى بيت أهلها غاضبة مرتين فى كل عام .. رحلة الشتاء والصيف ، وأنت يا أختى .. تلاقين من هذا الرجل كل عناء ، ولا تفارقين داره أبدا .

وبعد فترة صمت قال :

— أنا حائر فيما أقوله ، وأحسن كلمة تقال لمثلك هى « سلام عليكم » .

ورفع كفه إلى رأسه فى يأس وولاهها ظهره وانصرف .

وفى إحدى أمسيات الصيف والناس نيام فوق الأسطح من شدة الحر ، دخل الزوج إلى داره ، ونادى كعادته فى أيام الخصام بصوت غاضب وأمر مبهم وكأنه يخاطب الريح :

— عشا ..

وجلس على حصير فى ضوء القمر ، فى اللحظة التى نهضت فيها الزوجة سريعا إلى مكان من الدار تحضر طعاما . وكان الصبى راقدا على قرب وفوق جسمه غطاء خفيف .. ولم يكن نائما تماما .. لأن النوم طار من عينيه عندما سمع والده وهو يخاطب الريح طالبا العشاء . ثم سمع كرازة من القلة بطريقة تجمع بين الجلجلة والارتشاف ، وصوت صينية من الصاج توضع على الحصير ، وصوت الخبز الجاف وهو يتكسر ..

ولم يكن هناك كلام ، ولا صوت إنسان آخر يشاركه طعامه . وفتح الصبى عينيه فى حذر فرأى وجه أبيه واضحا ، لأن ضوء القمر كان يغمره

وهو جالس ، وأمه على مقربة من المكان خدها على كفها .. وضافد تنق
في صمت الليل . ودجاجات فوق رصة من الحطب تقرر في سكون
يحسدها عليه بعض أبناء آدم ..

وأصاب الصبي عناد فلم ينم حتى يرى نهاية المطاف بين رجل يأكل في
صمت وامرأة تجلس على هيئة الخزانى .. وودّ لو أنه كان كبيراً فقام وأخذ
من أمامه كل شيء . لماذا يفعل في أمه كل هذا ؟

ورفعت أمه الطعام ، ورأى والده يخرج علبة التبغ ويلف سيجارة
بأناقة وتؤدة ، ثم أشعلها ونفخ أول نفس جذبه وهو رافع وجهه إلى
القمر ، قبل أن يوجه الكلام إلى زوجته ليقول :
— اسمعى .

فسمعت دون أن ترد . فاستطرد :

— هل سمعت حكاية جمحا ؟

فقالت في عجب وشوق :

— ماله ؟

تقلب الصبي من جنب إلى جنب .. في شوق .. لسمع حكاية جمحا
الذى اشتهر بكل طريف ، ولا بد أن والده الليلة سيكون ظريفاً مثل
جمحا ، مادام قد اختار هذا النوع من الحديث . وخاصة عندما سمع
ضحكة ضحلة تنبعث في فضاء السطح .

قال الزوج :

— نعم . رأى أهل البلد مرة من المرات جمحا ماشياً على الطريق العام
ومعه حمار ورحى وعلى ظهر الحمار خرج ، وجمحا يحاول أن يحمل الرحى
في الخرج الذى على ظهر الحمار ، والذى يعملته الناس عادة أن يضعوا كل

فردة من الرحي في ناحية من ناحيتي الخرج ليحصل التوازن . ولكن جمحا
— الله يرحمه — كان يضع الرحي بفرديتها في ناحية واحدة فيقع الخرج
والرحي على الأرض ، فيميل جمحا ويأخذ الخرج ويعيده إلى ظهر
الحمار ، ثم يحمل الرحي ويعمل ما كان يعمل من قبل . ورآه أحد المارة
فضحك منه وقال له :

— يا جمحا يا مغفل ، ضع فردة هنا وفردة هنا ، ليحصل التوازن
ويسلم ظهر الحمار . أما هذه الطريقة فلا .
فرد عليه جمحا ساخرا :

— وأنت مالك يا سخييف ؟

وكم الصبى ضحكه ، وخجل أن يظهر مستيقظا بعد أن ظن أبواه أنه
نائم ، وصاح ديك كأنه لحقه الفجر ، ثم عاد السكون فقلب على الليل
نقيق الضفادع . وتوقف الزوج عن الحديث كأنما يستثير زوجته لتسأله
عن بقية الحكاية .. فلما لم تفعل استطرد يقول :

— ومر رجل آخر فنصح جمحا نفس النصيحة ، ورد عليه جمحا بنفس
الرد . وأخيرا تجمع الناس من حوله ضاحكين متسائلين ، فقد فهموا أن
جمحا الذكي لم يفعل هذا إلا للحكمة . فلما سألوه قال لهم :

— هل عرفتم الآن أنه من الضروري أن تكون « واحدة » هنا
و« واحدة » هنا ، ليسير الحمار ويعتدل الحمل ؟

فأجابوا في نفس واحد دون أن يفهموا مرماه :

— أى نعم .

فرد جمحا مقهقهها :

— حسن .. لماذا إذن لمتمنى عندما تزوجت امرأة أخرى ؟

ولما فرغ الزوج من الحكاية رأى الصبي في ضوء القمر أمه وهى تخطب صدرها بكفها ، وتهتف بكلمة لم يسمعها ، قام بعدها أبوه فنام ، أما هى فقد سهرت تبكى .

وبعد أيام قلائل دخلت الدار زوجة أخرى ..
امرأة ذات صدر وأرداف ومقصوص على الخدين ، تطرقسع « بشبشب » فى رجلها وبقطعة من اللبان فى فمها . ذات نظرة غجرية كفيفة بأن تثير المتاعب بين ساعة وساعة ، ولم ير الصبي أباه يخاطبها كما يخاطب الريح أو جنود سليمان ، بل كان يناديها باسمها فى لين ومحبة .
وانزوت أمه أكثر فأكثر وأهملت هندامها ، وجاء إليها أخوها ذات يوم وقال لها غاضبا على مسمع من الصبي :

— هيه .. هل بقى شيء ؟ اتركى داره وتعالى معى ..
لكنها سألته نفس السؤال القديم :

— برجعة أو بغير رجعة ؟ لقد تزوج بلا خطأ منى ، وليس هناك امرأة تأكل امرأة . ثم إن لى فى هذه الدار أشياء كثيرة — وأشارت إلى ابنها — ونحن نخوض النار يا أخى لننقذ الذين نحبهم ، فكيف يجوز لنا أن نرميهم فى الحريق ؟ لمن أترك هذا ؟

فرفع أخوها كفه إلى رأسه وهو يقول فى يأس وسرعة :
— سلام عليكم .

لكنها بعد انصرافه انزوت تبكى .. فقد تكون المرأة التى تزوجها أخصب منها عودا وأكثر جمالا ، ولكن .. هل هذا كل ما فى الحياة الزوجية ؟

بهذا سألت نفسها .. ثم عادت تسألها :

— ولو فرضنا أنه هو شخصيا أصابه مكروه ، فهل معنى هذا أن الأمر
بيننا قد انتهى ؟

ومصمت بشفتيها ، وأمسكت بالعود تعبت به في الأرض وكأنها لم
تفطن إلى أن الصبي على مقربة منها ، فقد نسيت في همها كل شيء حتى
نفسها ، لكنها فوجئت بكفه الصغيرة تربت على خدها الأعرج وهو
يقول لها في فرحة ولهفة من يحمل هدية إلى أمه :

— أمى .. أمى .. إن أبى قد تزوج ، وأنت حزينة لذلك .

— من قال لك هذا ؟ أنا لست حزينة .

— لا .. أنت حزينة ، وأنا عندى فكرة لكى تعودى مسرورة .

فتحت الأم عينيها ونفسها للصبي ، وأقبلت تسأله :

— قل يا بنى .

فأجاب في حماسة :

— تزوجى يا أمى .. تزوجى أنت الأخرى ، مادام هو قد تزوج .

فوضعت كفها على فمه وهى تكتم ضحكها ثم قالت له :

— لا تقل هذا ، هذا عيب .

فرد مدهوشا :

— عيب ؟ .. واشمعنى هو ؟

— هس .. لا تتكلم فإنه قادم .

ففر الصبي إلى الخلاء يجمع الصمغ من الأشجار ، ويطأ الحشرات التى
لا يستطيع أن يصيدها .

ولم يمض عام حتى مرض الأب مرضا عضالا ، وأبدت الزوجة
الجديدة جزعا عليه ، حسبته كل من رآه في أول الأمر نارا من اللهفة

والخوف على الأحباب ، فلما أدركت بعد عدة شهور أن الأمر مفروغ منه وأن هذا الرجل ميت لا محالة ، لم تعد تحسن القيام على خدمته فنحاه عنها في غضب .

أما الأولى .. تلك التي كان يخاطبها وكأنه يخاطب الهواء ، فلم تكن تذكر إلا حسناته ، وكأنها تحمل على كتفها الخرج الذي وصفه في قصته التي رواها وهو جالس على الحصير في ضوء القمر ، عندما أراد أن يقول إنه سيتزوج .. لكن الناحية الأممية — حيث ترى عينها كل شيء — لم يكن فيها إلا كل جميل ، وإذا كان جمالها العادي قد أصبح زوالا بمرور الزمن وإنجاب الأولاد ومشاكل الدار ، فماذا صنعت له المحظية الجديدة ؟ وبعد مرض طويل رأى الصبي والده القوى ذا الشارب الأسود الذي يبدو وكأنه مصوغ من الأسلاك .. رآه يموت .. ورأى الزوجتين تتفقان لأول مرة .. لكن على البكاء عليه .

ولما مر الزمن وتفرق أفراد الأسرة كما تتبعثر حبات العقد وأصبح الصبي ابن عشرين عاما ، سهرت الأم ذات ليلة تحكي له هذه الذكريات .. وكان ذلك في نفس الدار التي ولد فيها ، وذات صيف على حصير تحت ضوء القمر . ولما سأها الشاب متعجبا :

— لماذا كنت تتحملين كل هذا يا أمي ؟

قالت في ابتسام :

— لأنني لم أكن متزوجة رجلا واحدا ..

فشهق سائلا :

— كيف ؟

— كيف ؟ .. أبنائي كلهم أزواجي . لقد رأيت ذات ليلة من ليالي

الشتاء قطرة اكتسح المطر مرقدها ومرقد أبنائها على سطح الدار ، فإذا بها تحملهم بفمها لتقلهم إلى مكان آخر ، ولم يكن شيء قادرا على منعها عن ذلك ..

واستطردت وهي مطرقة :

— وكنت كلما شعرت بهزيمتي أمام الغضب من زوجي ، تذكرت أنني على الأقل أعقل من هذه القطرة .. لكن .. ألا ترى أنه كفر عن كل شيء حيال قبل أن يموت ؟ .. لقد خصني بوصية .. بقطعة من الأرض .. لعله كان يريد أن يعلن ندمه ويطلب مني أن أسامحه .. لكن .. إذا كنت يا بني قد غفرت له وهو حي فكيف لا أغفر له وهو ميت ؟ ثم .. إن الذين يسامحون لا يطلبون ثمنا لذلك .. رحمه الله .

وقبل أن تقوم الأم إلى صلاتها كان الشاب يبتهل في سره :
— اللهم ارزقني زوجة مثل هذه .. وأعدك يا رب أنني لن أظلمها .

أملان يتحققان

حين كنت مدرسا في مدرسة « صفط » الإلزامية وأنا في صدر شبابه ، لم يكن يداعب أحلامي إلا أملان : أولهما أن أنتقل مدرسا في مدرسة قريتي فأرتاح بذلك من ركوب الحمار كل يوم في الصباح الباكر ذاهبا إلى المدرسة — وثانيهما أن أتزوج بنت خالي التي سترث عن أبيها ثلاثين قيراطا من الأرض زيادة على ما تلبسه من الذهب .

وكان هذان الأملان يقتسمان وقتي مناصفة ، ففي النهار أفكر في نقل إلى مدرسة القرية ، وفي الليل أفكر في زواجي من بنت خالي . وكنت أتمس إلى تحقيق أهدافي هذه ما يلتمسه الناس عادة من وسائل .

ففي المدرسة أعمل على أن تكون العلاقات بيني وبين الناظر والمفتش ، دائما على ما يرام ، وفي حياتي العادية أعمل على أن تكون العلاقة بيني وبين خالي وامرأة خالي على غاية من الصفاء والمودة .

لكن الشيخ غالي المدرس في مدرسة « صفط » نغص على النسق الأول من حياتي ، أعني حياتي المدرسية . وكان الشيخ غالي رجلا معتزا بشخصيته ، ماهرا في خلق الأكاذيب ، ومن إحدى القرى البعيدة الواقعة في أطراف مديرية البحيرة ، وقد أوهمنا بوجه عام أنه قادر على النفع والضرر في محيط « المدارس » ، لأن له صلات عديدة ومن كل نوع بالمفتشين والمراقبين والنظار والكتابة الإداريين كذلك .

وأوهم ناظر المدرسة بوجه خاص أنه قادر على أن يفعل أشياء خطيرة . وعضد أقواله ذات يوم بأن أذاع علينا جزءا من حركة التنقلات المقبلة قبل

أن تذاع رسميا ، وصادف أن كان معظم ما قاله صحيحا . ومنذ ذلك التاريخ أسلم له ناظر المدرسة قياده ، واستحلى مائدة الغداء الشهرية التي يدعوه إليها فيأكل عليها ألوانا تصنعها زوجة الشيخ غالى بيديها ، بعد أن تطلع على كتاب يعتبر مرجعا ضخما في فن الطبخ . وفي صباح السبت يعود الناظر ليحدثنا عن الأعاجيب التي رآها على المائدة .. ثم .. ثم يذم الزمان الذي خلق فيه ، فقد كان مبكرا أكثر من اللزوم :

— لماذا لم يتأخر ميلادى يا أولادى فأتزوج طقطوقة مثل حرم الشيخ غالى تجيد صنع الروانى ، وتحسن تحمير البفتيك ؟
ويضحك الناظر عن فم سقط بعض أسنانه ، ثم يضع يديه على رأسه ليكبس العمامة فيه .

وهنا يرد أحد الزملاء فيقول فى أسف مصنوع : يا خسارة .. فيقول الآخر : فيم الخسارة ؟ لأن الناظر تقدم ميلاده أو لأن الشيخ غالى لم يدعنا إلى الغداء ؟

فنضحك .

على أن مثل هذه الأعمال كانت تحيك العلاقات بيننا ببطء ، كما تتجمع رواسب الأنهار فتصنع الجزائر . لأن الشيخ غالى استولى على زمام الأمور فى المدرسة بطريقة مستورة حتى أصبح وضع الناظر فيها بالمؤجر « من الباطن » . وبدأ المستور ينكشف حين غاب عنا زميل مرض بضغط الدم والسكر معا فمنح أجازة طويلة ، وبدأ الناظر يوزع حصصه على المدرسين ولكن بإشراف غالى طبعاً ..

وبما أنني أركب حمارا فى عودتى وذهابى إلى المدرسة لأقطع بأرجله البلدة كل يوم خمسة كيلو مترات ، فقد كنت حريصا على ألا آخذ

الحصة الأخيرة لأستطيع أن أعود آخر النهار في وقت مناسب . لكن الشيخ غالى استقل ظلي « الله في الله » كما أعلنها ذات يوم . وكان جدا مغلفا بمزاح حتى إنه قرأ الآية الكريمة : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل ﴾ . وكانت جارحة .. لكننا ضحكنا جميعا وضحكت مع الضاحكين .. وكنت غاضبي لأنها نكتة .

ثم أصبحنا بعد ذلك أعداء . سلط على الناظر حتى أرهقني بمحضر زميلي الغائب .. وأقام وليمة شهرية نحر فيها ديكا روميا عريفا في جنسيته ودعا إليها كل الإخوان وأهملني . وجئت أناقشه بعد ذلك في أمر فخالفته فاتهمني أنني ناظم عليه لأشياء تافهة .. ففهمت وفهم الحاضرون أنه يقصد الوليمة ؟ .. فتغايبت حتى لا أكون سخيفا ..

لكنني لم أملك إلا أن أكرهه ، لأن القلوب لا تستطيع أن تنكر ما يلمس شغافها وهي أولى من الأجسام .. التي لا تستطيع أن تنكر ما يلبس جلدها .:

* * *

وبقيت في مدرسة « صفط » معذبا بآمالى وأفكارى .. ومعاكسة الشيخ غالى ، حتى لاح على الأفق العام شيء وجدت نفسي مضطرا إلى أن ألتجأ إليه ، كما كان الناس يلجأون في ذلك الحين .

كان الاستعداد قائما على قدم وساق لإجراء الانتخابات لمجلس النواب ، وقال لى خالى : إنها فرصة .. شد حيلك .. هنتك يا بنى ، يمكن تنتقل للمدرسة بلدنا ..

وكانت الدعاية الانتخابية من أشق الأشياء على ومن أثقلها على نفسى .. لكننى أجبرت عليها إجبارا ، وكان خالى وامرأة خالى وبنت

خالى كذلك دوافع قوية تضرب بأيديها على ظهرى من الخلف لأتقدم .
وسهرت أوازن بين المرشحين لأرى أشدهم بأسا وأقواهم نفوذا وأقدرهم
على نقلى إلى مدرسة بلدى إن قدر له النجاح ، حتى استقررت على رأى .
وانتهت الانتخابات بعد أن أصبت بالتهاب فى حنجرتى من كثرة
الهنات ، وبكدمة فى مؤخر رأسى من رمية حجر ، وبخصومة بينى وبين
أفراد أسرتى لأننى شذذت عن إجماعهم ، وبعداوة بينى وبين عمدة القرية
لأننى كنت ضده .

ثم بتنا نترقب إعلان اسم النائب الجديد ..
وكانت كارثة ..

لم ينجح الرجل الذى هتفت له ، ومن ستر الله عليه وعلى أولاده أنه
أخذ التأمين ، وحبست نفسى فى الدار خمسة أيام أخذتها أجازة مرضية ،
ثم عدت إلى المدرسة بعد ذلك لألقى السخريّة من خصمى الشيخ غالى ،
ولأسمع أخبار الوليمة التى دعا إليها كل الإخوان احتفالا بنجاح المرشح
الذى دعا له فى دائرتنا ، ولو أن الشيخ غالى غريب عنها لأنه من شمال
البحيرة .

وبقىنا ونحن فى قرانا نتلقف أخبار الحركة الجديدة للمدرسين ،
وكننت يائسا من أمر نقلى فبقيت ساكنا . وكننت راجعا من الحقل عصر
يوم من الأيام أطوح عودا من الخيزران فى يمينى حين نادى على واحد من
أبناء قريتى :

— على أفندى .

— نعم .

— انتظر حتى ألحق بك .

فوقفت حتى لحق لى وحتى قال فى أسف :

— صحيح ؟

— عن أى شىء تتكلم ؟

— عن نفيك ؟

« وابتسم »

— أنا ؟

— نعم أنت . بلغنى أنك نقلت إلى مدرسة إدكو .

— يا نهار اسود .. دع المزاح إن كنت تمزح ..

— لست أمزح .. هل نسيت معركة الانتخابات ؟

فلم أرد ، واسود النهار فى وجهى ، لكننى تجلدت ، وحين علم خالى
حوقل وتهد ثم بصق فى الهواء ، أما امرأة خالى فقد لعنت أباً نائب الدائرة
واستعانت عليه بالله ، وأما بنت خالى فقد تشاغلت بعد غوايشها
الذهبية ..

وحين ذهبت إلى مدرسة إدكو التى تعتبر منفى بالنسبة لبعدها عن
قريتنا ، قابلنى الفراش العجوز عند باب المدرسة . ولما عرفته بشخصيتى
وأنتى أنا المدرس الجديد انحنى على يدى كأنه يريد أن يقبلها ، وسألته عن
الناظر فقال :

— آه .. فى حجرته ، من يدري ؟

— وما اسمه ؟

— الشيخ غالى .. نقل حديثنا مثل حضرتك .. تفضل ..

فضحككت وصفقت وتشاءمت وتذكرت الماضى . وتراقص أمامى
المستقبل ، كل هذا قبل أن أعبر عتبة المدرسة ، فقد نقلنا نائب واحد .

ولكن الشيخ غالى استفزنى بضحكة عالية غير مفهومة ، وقدم إلى كرسيا فى حجرته وقال مازحا :

— اجلس .. اجلس يا على افندى .

ثم طلب لى فنجالا من القهوة ، ومر النهار ولم يحدث فيه شئ .
وفى المساء مر على الناظر فى حجرى التى أجرتها ، وقال لى بعد أن شرب عندى الشاى .

— اسمع يا أخى . نريد أن نرسم برنامجا مشتركا .
فأجبتة :

— واسمع يا أخى . أنا مستعد أن أجعل الحاضر امتدادا لماضيها المنغص .

— كيف ؟ ولماذا تقول ذلك ؟

— كيف ؟ فى المرة السابقة اعتمدت أنا على الناس ففُضرونى ونفعولك حتى التقينا هنا ، فلا مناص لى إذن من أن أعتمد على الله فى هذه المرة .
— يعنى لينفعك ويضرنى ؟

— لينفعنى فقط ..

فمال على واحتضننى وقبلنى وقال :

— ثق أننى كنت أحترمك .. من زمان .. حتى فى الأيام التى كنا فيها فى « صفت » ، لأنك تحب أصدقاءك عن عقيدة وتكره أعداءك من عقيدة ، وهذا من طبعى كذلك .. صدقنى ..
فحملت فيه قائلا :

(حلم آخر الليل)

— صحيح ؟

— بشرقي وشرفك .

— اتفقنا إذن .

* * *

وبعد ذلك بعامين ، يوم أن صدر أمر نقلي إلى مدرسة قرينتي وانتهى
خالي من إعداد جهاز بنته لتزف إليّ — كان الشيخ غالي يودعني على المحطة
مع عدد من الزملاء وعيونهم مملوءة بالدموع . وأطللت عليهم من السيارة
وأنا أبكي .

بركة مخزن القمح

كان محصول القمح في هذه السنة رديئا غير كثير ، جعل النفوس الشحيحة تزيد شحا ، والنفوس الكريمة ، أو معظمها على الأقل ، تعطى في غير سخاء .

لكن عم عبد العزيز ، الرجل الغنى النفس ، عزل من قمحه قبل أن يدخله المخزن ما يخص الله منه ، ووضع في مكان بعيد عن متناول أيدي أولاده . ثم نادى زوجته الحريصة وقال لها في اهتمام شديد وبصوت خافت :

« اسمعى يا ستى . هذا القمح لم يعد ملكنا الآن ، إنه ملك الله ، رزق قسمه لبعض عباده لكنه سيجريه لهم على أيدينا ، أنا وأنت الآن أشبه ما تكون بساعى البريد ، هل تعرفين ساعى البريد ؟ إننا سنوصل رسالة أو طردا للفقراء والمساكين ، وأنت تعلمين أنني مسافر غدا في الصباح الباكر لبعض شغولى في المديرية ، وربما غبت هناك بضعة أيام . لذلك أصبحت أنت الآن مسئولة ، مكلفة ووكيلة عني في توزيع زكاه زرعنا ، فوزعها بنفس سخية لتقيم البركة في مخازننا .. وزعها بلا تأخير ..

ثلاث كيلات لأُم جمعة لأنها ترى يتامى ، وقد أوصانا الله بمعاونة اليتيم ، وكيلة واحدة لعَم مبروك الفقيه المكفوف ، فقد أوصانا الله بمعاونة غير القادرين ، وكيلة واحدة لخادم المسجد ، لأن خدمة العابد عبادة ، وهو رجل فقير ، وكيلة واحدة لأُم شعبان التى فقدت كل أولادها ، وقد

أمرنا أن نواسى المنكوبين بأقوالنا وأعمالنا .
كم كيلاة إذن تكون صدقة هذا العام يا ستى ؟ .. فأجابته وهى
شاردة :

— ست كيلات من القمح ، يعنى نصف أردب .
فهز رأسه وقال لها :

— هذا هو مال الله وهو أمانة بين أيدينا ..

وكان صوت الرجل منخفضا يشوبه حرص وحذر . كان يذكر من
يسمعه بصوت أحد الأطباء حين يحذر شخصا ما من أكل طعام فاسد ،
وبعد أن سكّت نظر لزوجته بعينين فيهما لمعان السيوف ، ثم بات ليلته .
ولما أصبح الصبح سافر فى وقت باكر إلى المديرية لقضاء بعض شئونه
الهامة .

وعاد الرجل من سفره بعد أيام ، فذهب توا إلى المخزن وتفقد القمح
الذى لا يخصه ، فوجده قد وزع فحمد الله ونسى الموضوع ، وشغل
الرجل كما يشغل كل الناس بأمور الحياة ، حتى انقضى شهران .
وكان ذلك مساء بعد أن غابت الشمس بقليل ، وعم عبد العزيز راجع
من الحقل على ظهر دابته وأمامه سلة فيها أنواع من الخضراوات أتى به
زرعه .

رأى الرجل على بعد امرأة تتعثر راجعة إلى القرية ومن خلفها ثلاثة
أطفال متلاحقين فى العمر ، لكن على كل منهم طراوة الطفولة . وكانت
المرأة تتكلم بصوت مرتفع أو تنصح أو تخاصم ، وكان صوتها يقترب من
الراكب قليلا قليلا ، حتى إذا لم يبق بينها وبين عم عبد العزيز سوى بضعة
أمتار عرف أنها أم جمعة ، أم اليتامى الضعيفة الصحة ، الفقيرة المسكينة

التي تركها زوجها في منتصف الطريق وانتقل إلى العالم الآخر .
كانت تلوم أحد أطفالها على عدم مهارته في العمل ، والطفل يردّ على
لومها بالبيكاء . وكان هذا في اللحظة التي حاذت فيها ركوبة عم عبد
العزیز أم الیتامی وأولادها .

ألقي عليهم تحية المساء ، فردّت الأم باهتمام واحترام ، ودعت له
بإخلاص أن يديم الله عزه ويكفيه شر المرض ويعيد عليه الأيام بخير .
وكانت لهجة الأم مشحونة بالتأثر حتى كأنها مغمومة بالدمع ، ولعل هذا
كان راجعا إلى ضيقها الحاضر من تصرف ابنها الباکی .

واقترسم عم عبد العزیز وهو راكب على ركوبته ما في السلة من
الخضراوات بينه وبين الأم ، فكان هذا سببا جديدا لاستئنافها الدعاء له
بأن يديم عزه وألا يحرم أولاده منه ، ثم فاضت عينها بالدموع .
وهنا تذكر عم عبد العزیز أنه كان من الواجب أن يرسل لمثل هذه الأم
كمية من القمح أكثر من الكيلات الثلاث ، التي أرسلها لها في الموسم منذ
شهرين .

ولما كان هذا الرجل من الذين لا يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى ، فقد
قال لأم جمعة معتذرا في حذر :

« كان بودی یا أم جمعة أن أقدم لك من مال الله أكثر مما قدمت ،
ولكنك تعلمين أن المحاصيل في هذه السنة لم تكن جيدة ، ولكن ..
معلش » .. وعند الله مغام كثيرة » .

فقالت المرأة بحماسة وكسوف :

« لا یا سیدی ، کتر خیرک ، فضلك علينا ، أنا دائما بادعی لك مش
علشان حاجة ، لكن .. أصلك راجل طيب » .

وهم أحد أبنائها أن يقول شيئا ، فسارعت أمه وغمزته في كتفه ليسكت . فجعل فعلها هذا الشك يتسرب إلى قلب عم عبد العزيز ، شك في تصرفات ترك غيره يعملها ، فساق ركوبته حتى وصل إلى الدار وتناول العشاء بوجه غير مبتسم وفكر غير حاضر ، ثم استأذن وخرج من الدار .

وعند باب المسجد قابل الشيخ مبروك الفقيه المكفوف وسأله في قلق :
« هل وصلتكم الأمانة يا شيخ مبروك ؟ » .

فضحك الرجل ضحكة مكسوفة ، وتكلم كثيرا كأنه يريد أن يبين بساطة الموضوع ، ثم قال له : « ما عندكم ينقد وما عند الله باق »
وبعد أن سكت قليلا قال : « نفسك معانا على كل حال يا حاج عبد العزيز ، أنا أقرأ لك الفاتحة عقب كل فجر بسبب وبغير سبب لأنك رجل طيب » . ثم ضحك ضحكة المحروم .. وفهم الرجل أن القمح لم يصله .
وسار الشيخ مبروك يتحسس الطريق بعصاه ، وكان وقعها يصل إلى أذن عم عبد العزيز وهو واقف في مكانه حيث كان كأنه نسي أن يمشى .
ثم آن لعم عبد العزيز أن يترك مكانه ويذهب إلى خادم المسجد وطرق عليه باب داره ففتحت له زوجته ، فسألها قائلا : « هيه .. هل وصلتكم الأمانة ؟ » فهزت رأسها تقول لا ، وكان وجهها الفقير على الرغم من ذلك هادئا مبتسما تبدو عليه الطيبة تحت نور المصباح الصاروخ الذي كان نسيم الليل يلعب به .

ومن هناك سار عم عبد العزيز حائقا مهموما ، وتوجه إلى دار أم شعبان الثاكلة التي فقدت ولديها ، وطرق الباب فلم ترد عليه ، وألح في الطرق فلم تفتح له ، وكان الليل ساكنا فاستحيا وانصرف .

دخل عم عبد العزيز داره بعد العشاء بكثير ، وكان كل من في الدار نائمين وليس هناك صوت إلا نباح كلبه فوق السطوح ، وصوت الوز الذى يقطقط وهو راقد . ونادى الزوج على زوجته فاستيقظت من نومها وأحست أن هناك أمرا غير عادى ، فسألته فى جزع :

— خير ..

فقال لها :

— خير .. فقط ، أحد الدائنين واقف لنا على باب الدار ويلح فى

طلب ما علينا له ..

فقالت فى تعجب :

— « أحد الدائنين .. يلح فى طلب ما علينا ؟؟ .. كيف هذا ؟؟ لسنا

مدينين لأحد » .

فأجابها زوجها :

— « بالعكس ، علينا دين ثقيل ولكننا بمأطلون » .. فلم تفهم

شيئا ، فاستطرد : طبعا ، نذكر ما للناس وننسى ما لله ، هل وزعت قمح الله على أصحابه من عباد الله ؟ » .

فبلغت ريقها ولم ترد .

فقال بخشونة وبصوت عال : ردّى ..

فهزت رأسها بالنفى ، فقال لها : ولماذا فعلت كل هذا ؟؟

فمرت فترة صمت قبل أن تقول لزوجها بخوف :

— « أنت تعلم أن المحاصيل كانت رديئة ، وأن الأفواه التى تأكل

الحبوب فى دارنا كثيرة مثل المطاحن ، وقد استكثرت أنا نصف أردب من

القمح أوزعه على الناس ، لذلك بخلت نفسى به فأدخلته المخزن ثانيا بعد أن

سافرت إلى المديرية ، ثم خرجت من أمامه خائفة تاركة له المكان .
ولما أصبح الصباح كان عم عبد العزيز على باب مخزن القمح ، فتحه
ودخل وفي يمينه كيلة ، وفي يساره غرارة ، وخرج بعد مدة ونادى أحد
أولاده الأقوياء ليساعده على حمل القمح الذي كيله ، ثم أخذ عم عبد
العزيز في توزيع القمح على المستحقين .

قالت زوجته ودمعة على خدها ، وحيرة على وجهها :

— ماذا تفعل يا عبد العزيز ؟؟ حق المساكين عندك نصف أردب ،
فما لك أخرجت من المخزن أردبا كاملا ؟؟ موسم القمح قد فات والغلة
قليلة والأفواه كثيرة ، فيكون معنى هذا أننا لن نجد حبوبا لبقية السنة .
فقال لها كأنه يؤدبها :

— اسمعي ! اصمتي ، في عملي هذا عقاب وصدقة وتكفير .. عقاب
لك على طمعك في مال الله ، وصدقة لأنها صدقة ، وتكفير حتى يغفر الله
لي عدم سهري بنفسى على توزيع ماله على عبادة ، هل فهمت ؟؟ .. توكل
على الله إذن وانصرفي .

وفي هذا الصيف نفسه لم يكن لأهل القرية — ومن بينهم عم عبد العزيز
— حديث إلا ارتفاع فيضان النيل . كانت موجة جديدة من الفيضان تمر
على هذه القرية الواقعة على الشاطئ ، وكان الفلاحون ينظرون إليها بذعر
وخوف كأنها بواذر طوفان .

ودخل عم عبد العزيز على زوجته ظهر أحد الأيام وقال لها :

— إن القرية قد خسرت محصول الذرة الصيفى المزروع على النيل ،
لأن الماء ارتفع في الليلة الماضية حتى أتى على كل ما في الحقول .

ثم أخذ يشرح لزوجته كيف أن أعواد الذرة أصبحت مغموسة إلى نصفها في الماء . أشبه بالفريق الذى لا يعرف العموم ، ولا يحمل طوق نجاة .

وبدا الوجوم على الزوجة ، فقال الزوج ساخرا :

— لا تحزنى فإنها أرزاق ..

فسألته :

— وأين هى هذه الأرزاق ؟؟

فقال لها :

— الناس يخوضون الماء ما استطاعوا ليجمعوا للمشية أعواد الذرة الغريقة ، أليست هذه أرزاقا للمواشى التى شق الله أفواهها قد ضمن لها رزقها .. لا تحزنى يا ستى .

فسألته فى وجوم : ولم ينبج حتى فدان واحد ؟؟

فقال مؤكدا :

— لم ينبج حتى قيراط واحد .. اسألى ..

فقالت : وهل سيرتفع الماء من جديد ؟ فأجاب ضاحكا :

— ليرتفع أو لينخفض ، فقد قضى الأمر ، لا تكونى مثل التى كسرت بلاص العسل فقعدت تبكى على الفخار ، ونسيت أن تراب الأرض يبرق أمام عينها بالعسل ..

قالت الزوجة فى حسرة :

— الحمد لله ، وزعنا القمح وأغرقنا الذرة .

فقال ليثير أحزانها :

— صحيح ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثلاثة فدادين ذرة تقاوى ،

وعرق ، ومصاريف ، وأخيرا .. غرق ، له الأمر .
فاعترضت قائلة :

— هل تضحك من المصائب ؟؟
فقال :

— أنا أضحك من سرورى بفعل الله . « ما عندكم ينفد وما عند الله
باق » . هل تتذكرين أردب القمح ؟؟ لقد صار اليوم ثلاثين أردبا من
الذرة ، من ثلاثة فدادين تملكها في أرض الجزيرة ، على شاطئ النيل ..
الذى أغرق معظم الأراضي في هذه المنطقة ، الماء وقف عند أرضي .. لم
يشأ أن يفرقها .. كأنها عالية ، كأنها جبل ، ولن يرتفع بعد ذلك ،
خلاص ، توقف الفيضان .. هذا لأننى أقرض الله قرضا حسنا .. هل
فهمت أيتها البخيلة ؟ .. افهمي ..

ورجع عم عبد العزيز يضحك من جديد .
أما الزوجة فقد كانت ذاهلة ، عيناها محمقتان ، وفمها مفتوح
والكلمات متجمدة فيه ..

بقية العمر

كانت القاعدة عند صاحبة هذا البيت الصغير هي .. ألا تسكن عزابا ..

ولكنني كنت الشخص الوحيد الذى شذ عن القاعدة ، لأن أمى شاركتني السكن فى الأشهر الأولى من المدة التى أقمتها فى هذا البيت . وكانت تسافر وتعود وتغيب وتحضر مددا متفاوتة الطول ، وترجع حاملا معها لصاحبة البيت هدايا من الريف تشرح صدر سكان المدينة . وكانت هذه الهدايا مدحاة لأن ترى صاحبة البيت الجانب الحسن من أخلاق طوال مدة إقامتى عندها .

والرواق الذى كنت أسكنه عندها وأنا طالب كان ذا ثلاث حجرات ، شغلت أنا واحدة منها وشغل الحجرتين الباقيتين رجل طيب كان يدعى « عم زكى » رب أسرة فقيرة صغيرة العدد لا تعدو أن تكون أبوين وولدا وبتنا .

وبحكم الجيرة والاشتراك فى دورة المياه وصالة الرواق كذلك ، نشأت علاقة لطيفة بين أمى وأم صلاح زوجة عم زكى . وكان لهدايا الريف سحر ساحر أيضا ، وأخذ شديد عند عم زكى بالذات . كان يحب البسيطة المصنوعة من دقيق الذرة الطازج المنخول .. ودقيق الذرة عند الفلاحين شئ غير غالى الثمن ..

وفى المدة التى كانت أمى تغيبها عنى كنت أجد من أم صلاح شبه أمومة تحوط بها شابا جاوز العشرين ، ومن سن ابنها بالضبط .

وكانت في الواقع امرأة مستقيمة كحد السيف ، عاشت في بيت عم زكى كما يعيش القبطان العظيم فوق ظهر سفينة صغيرة قديمة تالفة العدة . ومن خلال الحوائط « البغدادى » والنوافذ المفتوحة زمن الصيف ، والعبور في الصالة إلى دورة المياه ، والعلاقات العادية المألوفة ، والمناقشات التي لا تقبل الستر بطبيعتها ، من خلال هذا كله عرفت أحوال هذه الأسرة .

وكان عم زكى يشتغل « منجدا » ولم يكن له دكان مستقل مع أنه قد جاوز الخمسين من عمره . ويزعم عم زكى أن العز أدركه مبكرا وارتحل عنه مبكرا ، شأن الحياة وحكم قانونها ، لأن لكل زمان دولة ورجال ، والشمس لا تنير إلا نصف الأرض والنصف الآخر يكون في الظلام الدامس .

ونقطة التحول في حياة عم زكى هي مرضه بالربو ، لأن تراب آلاف القناطير من القطن القديم — كما يقول — قد نفذ من تلافيف رئتيه ، وهو لذلك لم يعد مستطيعا مواصلة العمل .

على أن السر الحقيقي في إعراض عم زكى عن عمله هو كسله ما في ذلك ريب ، وعلى الرغم من أنه مريض بالربو فإن وجهه مشرق بالصحة يكاد الدم ينبثق من صلعته الحمراء . والشباب حائر في بريق عينه لا يريد أن يغيض . ولولا أن السوس أتلف أضراسه فخلع منها ما تحت خديه ، فانحسف الخدان على هيئة نقرتين — لبقى لعم زكى قدر أعظم من وسامته القديمة .

كان كسولا ثرثارا مهملا أكولا ، من نوع من الرجال يستطيع الفساد أن يتسلل إلى بيوتهم بسهولة .. فالنقود القليلة التي يقدمها لزوجته

والنقود الأقل التى يمد صلاح ابنه بها البيت .. كان عم زكى يريد أن يأكل منها ويدخن ، ويهمل ويرتاح ويحكى لضيوفهم حكايات خرافية عن أيام العز .. أيام كان للمنجد عز الحرير وعظمة القطيفة .. وكانت النفوس سخية والأفراح تقام سبعة أيام بلياليها .. أما زوجته فكانت تضيق بهذا كله وتكتم تهدياتها عن الحاضرين وتدير البيت بطريقة سحرية ، وتفترض ولا يشعر أحد ، وتؤخر أجرة السكن ولا يشعر أحد .. وتطهو أحسن أنواع الأطعمة بطريقة من يحمر خروفا ، وتبتسم وفى قلبها جروح . وكانت تقول لأُمى عندما يفيض بها الغم : إنه لا أمل .. لا أمل إلا فى شيء من شيئين ، فإما تموت فترتاح ، وإما أن يصير ابنها صلاح رجلا من غير طراز أبيه .

وكان لهذه الأسرة موسيقا صباحية تعودت سماعها مثل ألحان الراديو ، كنت أسمع قبقاب عم زكى وهو راجع من دورة المياه بعد الوضوء ، وأسمع تشهداته وتهدياته وابتهالاته إلى الله بطريقة تثير ضجر الإله . وكنت أبتسم وأستغفر أنا الآخر حين أتخيل أن الله لا يريد أن يسمع دعاءه ، لأن عم زكى رجل لا يلتمس الأسباب . وقد رأيت الفلاحين « يبدرون الحب ، ثم يرجون الثمار من الرب » .

وتنبعث من الحجرة الأخرى معركة حول ما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يطبخ وما يجب أن يقدم وما يجب أن يؤخر ، ومن ثنايا هذا كله كثيرا ما كانت تعلو تهديدات صلاح بانقطاعه عن عمله اليوم إذا لم يأخذ قدرا معيناً من النقود . ثم أتى « زينب » الأخت وتوسلاتها بصوت مؤنث خافت ، وصراخ الأم ودعاؤها على نفسها بالسكينة ، ثم جئير الأب كأنه الثور فى المرعى .

على أن الأيام السخية الخضراء في حياتهم كانت تعتبر أنموذجا لأيام السعادة البشرية .. فترة أحلى من الراحة بين مغصين والسلام بين معركتين .. كنت أستشعر حلاوة ضحكاتهم على قلبي ، وأكاد أتذوق لذة مضغهم للطعام بصوت عال في الحجرة المقفلة وأنا ماشى عبر الصالة . وكانت أمثال هذه الفترات قصيرة المدى في العادة لا تقع لأسرة عم زكى إلا في الأوقات التي ينسى فيها المرض والثروة وينتظم في عمله نوعا ما . وكان « صلاح » امتدادا جيدا لخصال أبيه السيئة ، أما زينب فكانت امتدادا متوسطا لخصال أمها العظيمة . وكانت أم صلاح لا تسمح لبنتها مطلقا أن تلج على باب غرفتي حتى ولو كانت أسمى فيها . وكانت زينب جميلة فقيرة تذكرك حين يقع عليها بصرك بالثمرة الناضجة التي تسقط من على غصنها في طين الحديقة ، فأنت حين تراها تتمنى أن تأكلها .. مغسولة ..

ورثت وسامة أبيها وعينيها الملونتين . وكانت تشعر بشيء من الحرية في تصرفاتها إذا كانت أمها في الخارج حتى ولو كان أبوها في البيت . شيء على عكس ما يألفه الناس . ولكن عم زكى كان مشغولا بمجهول يلهيه حتى عن عمله .

وكان بيني وبينها شيء ما ينتظر فرصته ليظهر . وحين كانت تسنح الفرصة على السلم في لقاء عابر أو في المسكن إن غابت الأم ، كان الجبن والتردد في نفسينا معا يوهنا أن الفرصة القادمة أكثر فاعلية وتمكيننا من أن ننال ما نشتهي . وهكذا حتى ظلت التفاهات غذاءنا في الحب .

* * *

وفجأة تقضت الأيام وانتقلت من البيت ..

ومرة أخرى — وكأنا وقع ذلك فجأة — أتممت دراستى وارتحلت
عن القاهرة .

وكنت أذكر عم زكى كلما رأيت مرتبة أو لحافا أو وسادة ..
وأذكر زوجة عم زكى كلما رأيت أحدا ينفخ فى قرية مقطوعة ..
وأذكر زينب كلما رأيت حسناء مغلوبة صابرة على غلبها ..
ثم عدت لا أذكر شيئا ، ونصلت ألوان أيام التلمذة وانطلقا البريق
الحاطف الأخاذ الذى يشوش شعور الشباب فى أيامه الأولى ، واعتدل
الميزان فى يدى فعرفت تقدير الأمور .

لكننى على الرغم من هذا كله أتمنى على الله شيئا واحدا هو أن أتزوج
امرأة مثل زوجة عم زكى ، لأنها فى كثير من الأوقات كانت قادرة على
استغلال الصفر ، ولأنها أقفلت بابها فى وجه كل شبهة وهى تحت زوج
ظله كظل النخيل ، لا وارف ولا ظليل .

وتعاودنى هذه الأفكار ثم أنساها .. ثم تعاودنى ثم أنساها .. إلى أن
حضرت إلى القاهرة فى نهاية صيف ، ودخلت دكان الترزى لأفصل بدلة
جديدة لمناسبة سعيدة هى زواجى .

كنت جالسا أتصفح جريدة اليوم حين رأيت وجهها خيل إلى أننى
أعرف بعض ملامحه . ولما ابتسم بدت سن مكسورة عند مدخل الفم
فتذكرت حادثتها فقد كسرها لصلاح ابن عم زكى أحد صبيان الحارة
بلكمة ظلت ثارا مدة ثلاث سنوات . ونهضت وأخذته بالحضن ودار
شريط الذكرى حتى كدت أسمع تشهدات أبيه وابتهالاته إلى الله بطريقة
تثير ضجر الإله . وكان قصارى كلامنا أن أصر على ألا يقول لى شيئا عن
أحد : « تعال إلى البيت وسترى كل شيء .. نفس المكان . تعال الليلة

مساء .. .

ولم أتمكن لظروف طارئة ، فالذين ينزلون المدينة لقضاء حاجات عاجلة كثيرا ما يخذلهم الوقت .

وكان مقررا أن أسافر ظهر اليوم فأحسست بخنين شديد إلى أن أرى هذه الأسرة التي جاورتها عامين كاملين ، وأن أرى صاحبة البيت والسلم المظلم والرواق وحوائطه « البغدادلى » فكثير من التوافه تكون فى حياتنا أشياء ضخمة كما تتكون الجبال من حبات الرمل .

وعرجت على البيت ساعة الضحى ، وكان أول ما صدمنى أن صاحبتة غير موجودة . كانت فى مقابر الإمام بمناسبة « طلعت رجب » ، ولما صعدت إلى الرواق كان كل شيء ساكنا فيه . وعند المدخل تقريبا بدت فتاة حسناء واقفة وفى يدها وعاء من النحاس .. ووسعت عينها لأنها أنكرتنى .. فلما سألتها عن عم زكى أدخلتنى فورا إليه وانصرفت هى إلى شأنها .

وكان أول إحساس لمس قلبى بمجرد جلوسى على الكرسي هو إحساسى بالندم . لم يكن هناك داع لأن أرى هذه الأشياء المثيرة .

كان عم زكى جالسا فى الحجرة وحده وفى يده لقمة طرية محشية جبنا يأكلها بسرعة كأنه خارج ، ووضعها على حافة الشباك ثم سلم على وهو « يتمطق » وكان كل شيء فيه منطفئا إلا حركة فمه فى الطعام أو الكلام . عيناه الملوئتان كالنجوم الغائرة ولونه الأحمر كالح حائل وشعر صدره باد من الجلباب المفتوح . والمولم للغاية أن عوده الطويل انحنى من فوق ، ولما وقف يسلم على كان « قوس المنجد » على مقربة منه مسندا إلى الحائط ، فخیل إلى أنهما أخوان توأمان ولدا فى بطن واحد وتعرضا لحظ

واحد وجرت عليهما أحداث زمان واحدة ..
وتكررت التحية : « ازيك .. سلامات .. » من عم زكى عشرين
مرة . ثم تذكر اللقمة فمد يده وتناولها وعاد يتلمظ ويتكلم :
— « كيف حال والدك ووالدتك وأخواتك ؟ بخير ؟ الحمد لله ..
أين أيام زمان . وأين بسيسة الذرة الطازج المنخول ؟ كله يتغير .. حكمة
الله .. أتعرف من هذه التي قابلتك في الصالة ؟ .. زوجة صلاح . ها .
ها . ها . تزوج الملعون بعد وفاة أمه . هل تعلم أن أم صلاح
ماتت ؟ .. »

وهنا توقف عن الكلام وابتلع آخر لقمة .. واحتقن وجهه فعاد أحمر
كأيام زمان . وبدا لي كأنه مخبول أصابته نوبة من العقل . ثم اغرورقت
بالدمع بقية عينيه . وابتلع ريقه وقال بهمس مؤثر :
— الله يرحمها .. أنا أتعبتها كثيرا . كنت أتدلل عليها كأننى طفل .
« فين الكحك بعدك يا عيد ؟ » .. وسكت ..

فقلت : وزينب ؟

— تزوجت . هناها الله ..

ثم نظر إلى القوس المسند إلى الحائط متهما له كنظرة الشريك الخاسر إلى
شريكه الخاسر ، وقال : أما الصنعة فإنها ظلمتنى . — قلت في نفسى : بل
أنت الذى ظلمتها — واستطرد عم زكى : ولذلك فقد أوصى على
الأسطى عزت الترزى الذى يعمل عنده ابنى صلاح — أوصى على أحد
زبائنه الموظفين الكبار ليجث لى عن عمل يناسب صحتى ، وبقيّة
عمرى ..

وقمت لأدرك القطار .. فتعلق بى قائلا : حتى نشرب الشاى .

(حلم آخر الليل)

فاعتذرت له ، فاستطرد في حنين : هل تذكر الشاي مع بسيسة
الدرة ؟ .. هه ؟ .. هل تذكر ؟ فوعده أن أحضر إليه كيلة من الدقيق
ليعملها بسيسة كلها .

وسار معي إلى الباب فودعته وحملته التحية لصلاح وطلبت منه
الدعاء . فلما ابتهل إلى الله كدنت أضحك لأنه عملها بنفس الطريقة التي
كنت أنخيل أن الله يتضجر منها .

ثم أردف عم زكي ونحن عند العتبة تماما :

— ادع لي أنت يا بني ليوافقني الله إلى هذه الوظيفة ..

وحركني فضول شديد فحاولت أن أعرف ماذا عسى أن يكون نوع
وظيفة تصلح لعم زكي ويصلح لها عم زكي . فسألته ، فقال ببساطة من
يوضح أمرا واضحا :

— خفير !

قلت مستغربا :

— خفير ؟ .. خفير على ماذا ؟

— خفير مراحيض .

فقلت في نفسي وأنا أهبط السلم وأدور مع انحناءاته في ظلمة النهار :

— وجب .. هذه أحسن مهنة تناسب هذه المهمة ..

صديقان في المدينة

كان يكبرني بأكثر من ست سنوات ، وكان رقيقا شاعريا حساسا ، لا تبدو المشاعر على صفحة وجهه حتى ولو كانت عنيفة . لذلك فإنه كثيرا ما كان يحترق بهيمومه دون أن يشعر به إنسان .

كنا نتعلم معا في المدينة ونسكن مسكنا مشتركا . وكنا أبناء إقليم واحد ، بل إن قريته لم تكن بعيدة عن قريتنا بأكثر من بضعة كيلو مترات . ولما رأيته لأول مرة لم يعجبني فيه شيء .. لا لون وجهه الأسمر المصفر ، ولا صوته الهادئ أكثر من المؤلف ، ولا شروده الطويل وعوده الطويل .. لكنني ما لبثت أن اكتشفت فيه يوما بعد يوم شيئا حبيبي فيه . فلم تكن صفة لونه إلا من إرهاب إحساسه ، ولا هدوء صوته إلا من فرط رفته ، ولا شروده الطويل إلا لتأمله لكل ما حوله . وكان ابن ثلاث وعشرين عاما ومدرسا في مدرسة التجارة المتوسطة ، وكنت أنا في التعليم الثانوي ابن سبعة عشر عاما في الوقت الذي لا أزال أجمع فيه التجارب ، أما هو فقد كان لظروف كثيرة — قد جمع منها قدرا يحسد عليه .

ولم يكن كثير المذاكرة ولا المثابرة ولكنه كان شديد الذكاء . يضمنا مسكن من حجرتين .. وكنت وأنا في حجرتي أحس أنه قام مبكرا بأحد أمرين : إما أن يفتح على الباب ويقول بصوت هامس طيب : « تصبح على خير » ، وإما أن أسمع حركة المزلاج وهو يغلق عليه بابه قبل أن ينام . وكثيرا ما كنت أشتاق أن أجالسه أثناء السهرة ، فأدق على الجدار

الذى يفصل بين الحجرين فيأتى كما يمشى الطيف وعلى فمه الواسع ابتسامة
حيية فنقطع عملنا لكى نستريح ونجلس على كرسيين متجاورين حين يبدأ
فى حكاية إحدى نوادره التى ما كنت أشبع منها ، وكان إذا أراد أن يتكلم
عن شيء بدأ حديثه بعبارة شيقة فيقول مستفهما :

— هل تعلم ؟

بـ بماذا ؟

عند ذلك يبدأ فى حكاية ما يشاء . فعلمت من حكاياته أنه وحيد
أبويه ، وأن والده أنجبه على شوق ولذلك فإنهم أتاحوا له حرية كان من
المسير أن يمنحها أب لابنه فى ذلك الزمن .

وقد مدته هذه الحرية بتجارب هى فى الحقيقة أكبر من سنه . لذلك
كنت حين أتحدث إليه أشعر أننى أكلم رجلا يفوقنى فى كل شيء .. رجلا
من سن أبى وفى تجربته على الأقل .. لذلك أحببته كما أحب الصديق والمعلم
والأب والأنيس ، وزاد من حبى فيه أنه كان لا يسخر من أخطائى مطلقا
وكان يبصرنى بها بخنان وحب ودارية .

سألته ذات مساء : لماذا لا تبدو متفوقا فى الدراسة وأنت فى مثل هذا

الذكاء ؟

فأجاب ببساطة من يعرف موقعه :

— لأننى ملول يا صديقى .. وضحك واستطرد :

— وإذا حاسبتنى الحياة بالشهادات فتق لأننى ضائع ، لذلك فإن
أساتذتى فى المدرسة يحبوننى ويشفقون على معاويتناون لى إما بخيبة كبرى
وإما بشهرة كبرى . وأنا شخصيا أعتقد أن الحياة تعطينا الأسهل
والأرخص .. فالخبرة أقل تكلفة وأسهل منالا من الشهرة .

وإقفال باب المسكن قبل الفراق بالنسبة لقلبيينا الغضين عملية عسيرة .
كننا نحن الاثنين من النوع العاطفي ، لذلك فإن دموعنا كانت تغلبنا وإن
غالبناها .

وسهرنا الليلة الأخيرة قبل الرحيل نحكى من ذكريات طفولتنا
وسعادتها والخاوف التى مرت .. والخاوف التى نخشاها فى المستقبل . ثم
سافرت أنا إلى القرية لأننى ما كنت أطيق البقاء فى المدينة يوما بعد
الدراسة . أما هو فقد ودعنى إلى المحطة . وكنت أسمع كلماته وأرى
بسماته وهو مستند إلى الشباك من الخارج حتى غلبته سرعة القطار .
وتركته فى المدينة فى انتظار النتائج .. نتيجتى ونتيجته ونسيت بين
أحضان الأهل مشقة عيشة الوحدة وخدمة النفس . ولم يكن ينفصنى
شئ إلا الخوف من كبوة الحظ .
حتى كانت ليلة ..

كان جوها حارا خانقا والنوافذ الريفية مفتوحة كلها يتسرب منها
ضوء القمر ورطوبة الليل ورائحة الندى ونقيق الضفادع . وفى ظل هذا
السكون كنت أفكر فيما عسى أن يتمخض عنه الغد بالنسبة لى
ولصديقى . وخيل لى فى هذه اللحظة أنه قريب منى وأننى أسمع صوته
فانتبعت فإذا الوهم حقيقة وإذا به ينادينى من تحت النافذة .

وخرجت أجرى سريعا فألقيته واقفا جنب الركوبة التى امتطأها
ليقطع بها خمسة كيلومترات فى الليل على الطرق الزراعية وعانقته فى ظلام
الحارة وخرج ورأى أخى الصغير يحمل إلى المضيقة مصباحا ساذجا
وجلسنا أنا وهو واجتمع حوله طائفة من أهل .

ومن الغريب أننى ارتبكت فلم أعرف كيف أفتح الحديث ، حتى

لكأنه شخص لم أعش معه . وكأنما لذ له أن يتركنى لهواجسى فترة لأنه لم يعلن إلى نبأ نجاحى فور لقائنا . قال :
— مبارك نجاحك .

ثم قام فقبلنى مرة أخرى وتبادل التهانى مع أهلى . وسألته فى لفظة :
— وأنت يا حسن ؟
فرد بسعادة ظاهرة جدا :
— وأنا أيضا .. الحمد لله ..

ولم يطل مكثه بالطبع ، فالدنيا ليل ويجب أن يعود .
ولما خرجنا لوداعه عند أول الطريق كان الهلال قد غاب وغطى القرية
جوها المألوف ، قلت له وأنا أنظر إلى النجوم المتألفة :
— لا بد أن يصاحبك رجل حتى حدود بلدكم .
فسخر قائلا :

— وهل أنا امرأة . أنا مقدر كل ظروف قبل أن أسير خطوة واحدة .
لا . أرجوك . فقط أرجو ألا تنسى أننى سعيد لتهنتك فى ظلام الليل ولم
أنتظر حتى الصباح لأننى أعلم أنك تغلق بلا داع .. وداعا يا أخى ..
وأنا بانتظارك .

قلت بحماسة :

— سأق إلىك غدا لأهنتك ولأتغدى معك .
فضغط على يدى مودعا وركب وظللنا نتبع ركوبته البيضاء بأبصارنا
تحت نور النجوم ونحن واقفون .

* * *

وما أن ارتفع ضحا اليوم التالى حتى كنت عنده .

ولم أر أحدا من أهله لأننا نزلنا إلى حديقة صغيرة تقع أمام بيتهم .
وجلسنا تحت إحدى عرائش العنب نقطف ونأكل ونتكلم ونضحك
ونذكر متاعب وملذات عامنا المنصرم .

ومنا بعد الغداء تحت إحدى خمائل الجنية ثم استيقظت بعد العصر وأنا
أشعر كأننى قضيت ساعة في الفردوس الحقيقى .

ولما أذنته بالانصراف قال لى بصوت يشوبه الرجاء :

— يا سيدى .. مهلا .. لماذا أنت متعجل .. هبنا ساعة أخرى حتى
نشرب الشاى وتكون حدة الشمس قد خفت فتركب فى هواء الأصيل .
— أمرك .

ولما جلسنا نشرب الشاى قال لى فجأة :

— اسمع يا حسنى .

— نعم ..

— هل تعرف ماذا سأعمل بإذن الله فى العام القادم ؟ إننى جهزت
برنامجا فذا .

فهمت كالمصعوق :

— العام القادم ؟ .. العام القادم ؟ .. أى عام تتحدث عنه يا حسن ؟

ألم تقل إنك نجحت ؟ هل .. ؟ .. ؟ ..

ووقفت الكلمة على شفتى وجمدت يدى بكوب الشاى وهى فى
الطريق إلى فمى وامتألت عيناى بالدموع ، فى الوقت الذى بدت فيه
بوضوح على وجهه الطويل الأسمر المشرب بصفرة علامات الفشل
الذريع . لكن ابتسامة لا يفهم معناها كانت جامدة على شفتيه .

وظللنا هكذا مدة لا أدرى مداها حتى أخرجنا هو من الموقف قائلا :

— ماذا جرى ؟ .. إن الأمر لا يستدعى هذا الحزن كله .

— تذهب في ظلمة الليل لتنهني بالنجاح وأنت ..

فسمعتة يضحك وغابت عن وجهه علامات الأسف وقال :

— هذه أعز تهنة أقدمها إليك .. وعلى كل حال إذا كنت أنت قد رأيت فيما عملته لك شيئا شاذا فأنا على العكس منك .. فلقد شعرت أن نجاحك قد منحني قدرا من السعادة خفف مرارة فشلي . ثم ماذا كنت تريد أن أقول لك يا أخي الصغير ؟ .. هل كنت أريد أن أنفص عليك فرحك ؟ .. ما أشبهني إذن بمن حمل باقة من الأزهار في إناء .. لا .. لا .. ثم سكت ليستطرد :

— والأيام أمامي وقد عملت برنامجا هذا للعام المقبل .. ستجدي شيئا آخر .. وأننى إذا كنت من الذين لا يحسنون أعمال التلاميذ فأنا أيضا لست من الذين يستسلمون للهزيمة .

* * *

وعانقني على الطريق وأنا ذاهب .. وبين الفينة والفينة كنت ألتفت إليه وأنا على ظهر ركوبتي لأشبع نظري من ذلك النموذج العزيز فأراه واقفا ليفعل مثل ما أفعل . ومنذ منحني الطريق نظرت فلم أجده .. وعند ذلك فقط أخرجت منديلي لأكفكف دموعي .

جددنا المواعيد

بدأت الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها أنا وزميلي رفعت في مثل سعة الصحراء ، بعد أن تركني وسافر . كانت مؤلفة من حجرتين اثنتين وفسحة كبيرة .. وكل واحد منا يشغل حجرة .. فيها فراشه وكتبه وكل ما يملك الطالب من أشياء .

وكانت الساعة الخامسة مساء حين استيقظت من نومي وجلست على مكتبي ، أذكر الأيام التي مضت والتي قضيناها معا وأنا وصديقي .. وهو الآن في الصعيد مدرس في إحدى المدارس الثانوية .

تخرج قبلى بعام لأنه سبقني بعام وسألحق به بعد انقضاء هذه السنة . وسألت نفسي : ترى أين يكون موضعي من الأرض وفي أى بلد سأكل عيشي ؟

وتنهدت وقمت أدور في المكان كأنني أحسست مللاً ، ومررت بباب حجرته المقفل فهبت على روائحه من وراء الباب . وعرجت على المطبخ بلا تدبير فأشعلت موقد الجاز وجهزت كوباً من الشاي ثم رجعت وجلست أشرب .

كنت أقطع الأفكار بالرشقات ، وأهز رأسي من حين إلى حين كأنني أستعيد ذكرى مأساة ، وكانت نكهة النعناع تملأ أنفي ومزايا صديقي تملأ قلبي .

وقهقهت فجأة حين تذكرت آخر غرام له في العاصمة . وكان كثير الغرام ، حبه الأخير قبل أن يرحل كان مع فتاة رقيقة القلب والحال

والجسم ، تعمل بائعة في أحد المحلات الكبرى .. وكان اسمها فوزية . قال لي صديقى إنه لم يكن يقصد أكثر من كلمة استحسان ولمسة غزل يوم التقى بها للمرة الأولى في المتجر الذى تعمل فيه ، وشيعته يومئذ بعينين ناعستين وسهوم متعطش .

ثم التقيا مصادفة في يوم أحد ، واحتك كتفه بكتفها والجمهور خارج من السينما ، فكانت فرصة أخرى للقاء صنعت أولى حلقات العلاقة بين الفتى والفتاة .

ولم يكن رفعت راغبا كل الرغبة في مد حبل العلاقة بينهما . كان كثير الصداقات ، صلب القلب ، يستعمل شخصيته الجذابة مصيدة يعذب بها القلوب الضيقة . وكان حين يحدثنى عن غرامياته يبدو في هدوء من يحسب حسية أو يسألك عن الساعة . وكنت أحاول أن أعرف موضع القوة فيه فأعجز ، لأن العلاقة بين الرجل والمرأة أو قوة جذب أحدهما للآخر سر إلهى خالص . ولذلك رأينا جميلات مائلات البخت ووسماء لا تحبهم الأنثى ..

ونفذت نكهة النعناع إلى خياشيمى وأنا أضع الكوب الفارغ في ناحية من المكتب ، وكنت أقول في نفسى في هذه الوهلة : مسكينة فوزية ! كانت متعلقة به ثم تركها وسافر . ولعل قلبها يحاول التخلص من شباكه الآن بلا فائدة ولا طائل كما تفعل فراخ العصافير .

وفي هذه اللحظة دق جرس الباب فأحسست إحساسا مبهما أن اليد التى قرعته يد خائفة مترددة ، وأن هذا الطارق لا يطلبنى أنا . ربما يكون خطأ وربما يكون لصديقى .. الغائب .

وجدت نفسى — بعد أن فتحت الباب — وجهها لوجه أمام فتاة

متوسطة الجمال ، عليها دلائل واضحة من رقة القلب ورقة الجسم ورقة الجمال . ولقت نظرى منها أكثر من أى شىء آخر جفاف شفيتها كأنها متعبة أو ظامئة . وبادهتني بسؤال مختصر سريع حين رأتني :

— هنا يسكن الأستاذ رفعت .. أليس كذلك ؟

ثم دلفت إلى المكان دون أن تنتظر إذنا . ووجدت نفسى محرجا ، فأنا لن أدفعها إلى الخارج ولن أقول لها إنه سافر إلا بعد أن تستقر فى مكان ، فضلا عن أنها لم تكن مخيفة ولا مرية .. كانت من النوع الذى يتأكد أى رجل أنه قادر على قهره وغلبته بمجرد وقوع عينه عليه . وأقفلت الباب وسرت أمامها وتبعتنى إلى حجرى .

بللت شفيتها بريقها بعد أن استقرت على أقرب كرسي ، وفتحت حقيبة يدها لتخرج منديلا فسيقته رائحة عطر أنعش هواء الغرفة .. كل ذلك فى دقيقة أو أكثر قليلا . هتفت بعدها بلهجة مستعجلة :

— وأين الأستاذ رفعت .. من فضلك ؟

قلت لها بلهجة من قرر أمرا مفروغا منه :

— إنه سافر . ولكن يجب أن تستريحى .

فبدت عليها المفاجأة ، ثم رفت على وجهها سحابة غم خفيفة من نوع السحابة التى تخيم على وجوه الدائنين حين يتمكن مدينوهم من الفرار بطريقة غير شريفة .

وأردت أن أخفف من حدة الموضوع ، فقلت كلاما لا يعدو أن يكون كلاما فقط لا مغزى له ولا مدلول ولا طلب ولا فائدة .

— نعم .. سافر يا آنسة . وهل أستطيع أنا أن أؤدى أية خدمة ؟

فردت وهى تنظر فى حقبتها المفتوحة بهمس وشروود :

— شكرا .. فالمسألة شخصية صرف ..

فقلت مستدركا :

— شخصية صرف ؟ أنا متأسف ..

وكأنما أفاقت على أنها اتخذت خطوة غير كريمة مع رجل كريم أحسن لقاءها وأبدى استعدادا طيبا لعمل ما تطلبه منه ، وحملت في برهة فشعرت أنها بدأت تستأنس بشكلى الهادئ وتطمئن لنظراتى الودعية . وأسندت ظهرها إلى ظهر المقعد وتمكنت من جلستها ثم نهدت بارتياح .. وقالت وسبابتها على شفيتها :

— إذن سافر ؟

— طبعاً سافر .

— هيه .. وظف ؟ .. هل سيعود ؟

— إن أثنائه ومتاعه كله فى الحجرة الأخرى .

— حسن .. على كل حال لم تكن تصرفاته مع فتاة أحبته تصرفات رجل كريم .

فخفق قلبى وانتابنى حب استطلاع لا يغلب . لكننى حاولت جاهدا أن أكنم عنها فضولى وأن أدعها تقول ما تشاء وتخفى ما تشاء . فعلمت على قولها بسؤال :

— وهل سفر الناس شىء ممنوع ؟

— لا مطلقاً .. لكنه إذا جاء فجأة وأحيط بالكتمان والمراوغة كان له

معنى مريب .

ثم ساد سكون لم أجد فيه شيئاً أقوله ، فاستأذنتها فى عمل فنجان من الشاي ، ولما رجعت إليها وجدتها أكثر هدوءاً . كانت تقلب نظراتها فى

المكان بشيء من الاستقرار ، ولونت وجهها حمرة مألوفة تطبع وجوه الفتيات في عمرهن الباكر . وحين قدمت إليها الشاى قالت بلهجة جديدة :

— أنت ظريف .. وأنا متشكرة جدا .. الفرق بينك وبين صديقك رفعت عظيم للغاية .

ونحن نتحرج إذا وازن الناس بيننا وبين أصدقائنا .. لكن حب الذات يغلبنا دون أن نشعر . فقلت لها بدعاية هادئة :

— طبعاً الفرق بيننا عظيم .. هو سماء ، وأنا أرض .

فنظرت إلى من خلال أهدابها نظرة فهمت معناها ، وهى تحرك الملعقة فى الفنجان . ثم هزت رأسها وقالت :

— من النظرة الأولى تحكم العين عليك بأنك من الذين يطمأن إلى جانبهم .

— شكراً ..

— لكن رفعت خدع فتاة بريئة .

وسكتت وسكت .. استطردت :

— وأنا أعجب لهؤلاء الشبان الذين ييذلون الوعود بلا حساب .

أليس من الجائز أن تكون هذه الفتاة التى خدعها مرتبطة قبله برجل آخر .. ومن قوة تأثيره تتخلى عن الأول .. ثم تخسر الاثنين ؟

قلت بشروء :

— جائز ..

قالت وفى عينيها السوداوين دموع متوقفة حول الحديقة كأنها نقط من

الجلسرين :

— ألا يذكرون أن لهم أعراضاً ؟ لماذا يفضلون هذه التسلية الكريهة .. أنهم تشعلون الحرائق في بيوت الناس بالبساطة التي يشعل بها الواحد منكم سيجارة .

وكان الحماس قد بلغ بها منتهاه إلى حد أن أصابعها الطويلة كانت ترتجف ، فأجبتها بشيء من الخجل :

— لكن لماذا أنت منفعلة عليّ ؟ كأني أنا صاحب الموضوع ؟ فأفاقت قائلة بأسف لطيف :

— متأسفة .. إن الموقف هو الذي جرفني .. على العكس .. أنت شاب طيب .. يخيل إليّ أنك لو كنت في موقفه ما فعلت معها مثل ما فعل .

وحاولت أن أستوضحها ، لكنني أشفقت على رقتها أن تخرج مرتين .. إنها فوزية ما في ذلك شك بدليل أنها تتكلم بحرارة من خدعه إنسان كانت واثقة فيه .. ثم هي تنظر إليّ الآن نظرات لينة كأنها مجروحة تطلب ضمادا .. وأنا إذا تقدمت إليها خطوة فإنها ستخطو إلى خطوتين .. لكن ألا يعتبر هذا خيانة بالنسبة لصديقي الغائب ؟ وجاءني صوتها يسأل :

— لماذا كل الرجال خائنون ؟

— هل أنت واثقة مما تقولين ؟

— لماذا كل الخنظل مر ؟ هل أكل الناس جميع الخنظل الذي في الدنيا ؟ ذاقوا منه ثلاثة مثلاً فعرفوا أنه كله مر .

ورأيت منطقها لا يخلو من المغالطة ، فأثرت أن أرد بابتسامة لا تعبر عن شيء لأنني أشفقت عليها . مسكينة ! لا داعي لخرجها .

وفي يوم الأحد التالى فتحت الباب فوجدتها هى التى دقت الجرس ..
كانت فى زينة أبهى من زينة اللقاء الماضى وعلى وجهها دلائل من جاءت
لتسأل عن شخص حاضر .

وقصدت إلى حجرى توا وبادرتنى بسؤال عن حال رفعت ، ثم
توجعت قليلا من تصرفاته الخائنة ثم طلبت منى أن أعمل فنجانا من
الشاي .

ثم أخذت تفحص كتيبى على المكتب ، ثم حلت بعض أزرار قميصها
لأن الجو مائل إلى الحرارة فبدأ صدرها النحيل أكثر من قبل . ثم طرحت
شبكة الصمت والسكون والخيرة والنظرة اللهفى فعلقنت رجلى
بالشبكة .. فإذا بى — ولست أدرى كيف حدث — أحتضنها وأقبلها
وأسمع منها كلمة الحب . ثم يظلل جونا صمت مؤسف ثقيل يعرفه اثنان
خانا ثالثا يعرفانه .. والثالث غائب عنهما .. لكن روحه مشرقة على
المكان .

قلت لها بعد أن جمعت شتات أعصابى :

— اسمعى يا آنسة . لقد حدث بيننا ما حدث وانتهى الأمر .. وعلينا
منذ الآن أن نتحمل تأنيب الضمير فترة من الزمن حتى يخفت صوته أو
نعود للتأنيب .

فضحكت فى رفاة بال ، وغابت عنها الأنثى المهزومة المجروحة التى
كانت تطلب ضمادة وظهرت من خلالها فتاة ثانية متفتحة .. يوحى
منظرها الرقيق فى كل ناحية أن له مستقبلا أحسن كما يورق العود بعد
الجفاف .. فسألتها جادا :

— هل ترين فى هذا شيئا مضحكا ؟

— نعم يا حبيبي .

— ما هو ؟

— أن رفعت يستحق هذا الذي فعلناه لو أن له عندي حقوقا .

— لماذا ؟

— لأنه لا يحفظ عهد أحد . والدين لا يحفظون عهود الناس لا يجب

أن يحفظ الناس عهودهم .. على أنه ليس عندي حق ما ..

وأخرجت زجاجة عطر صغيرة وأطلقت أنفاسها تجاهي .

وسكننا قليلا ثم عاودنا أخطائنا من جديد . ولما هدأ ما بنا سألتها

سؤالا كأنما أردت به أن أزيح عن صدري كابوسا .. قلت :

— افرضي الآن أن رفعت طرق علينا الباب وفاجأنا بالدخول ..

ألا يكون في ذلك ما يجرح إحساسنا نحن الثلاثة ؟ ثم أى الثلاثة منا

سيختص بالقسط الأكبر من الملامة ؟

قالت بشجاعة :

— لا أحد ..

فهتفت متعجبا :

— ماذا تقولين يا فوزية ؟

فاستغرقت في الضحك وردت :

— فوزية .. أنا فوزية .. من قال لك ذلك ؟

— إذن ..

— أنا عواطف زميلتها في المحل . هل كنت تظن حتى الآن أنني فوزية ؟

هل بدر مني ما ينبئ بذلك ؟ كنت قد جئت لطلب رفعت فأصلح بينهما

فوجدت الغرام كامنا لي في الركن .

و كنت لا أزال صامتا أراجع موقفى لأعرف ما إذا كنت ساهيا أو
مغفلا . لكن الذى وصلت إليه هو أننى أحببت هذه الفتاة ، وليكن اسمها
فوزية أو عواطف أو زينب أو زكية ، وأنه لا سبيل إلى التراجع ..
وجددنا المواعيد .

عبير الحرية

لم أكن قد رأيت ضاحية « المعادى » منذ عشر سنوات . كما بعض سكانها سنة ١٩٥١ وكان أبى موظفاً فى الحكومة ثم انتقل فى هذه السنة إلى مدينة « سوهاج » مهندساً فى البلدية .. وودعت الضاحية الجميلة التى قضيت فيها أزهى سنوات الطفولة وأحلاها ، وسافرنا إلى الوجه القبلى الذى كان فى الحقيقة هو وطنى الأول لأن أبى من مواليد الصعيد .

كان أبى فرحاً جداً وهو ينظر من نافذة القطار إلى غابات النخيل على جانبي الطريق ، ويهمس إلينا بين فترة وفترة بذكرىات طفولته فى هذه الأرض . وكنت أنا فى الثانية عشرة من عمري تلميذاً بالمدارس الثانوية . وكنت بالتالى — كشأن أبى — مشغولاً بالأرض التى قضيت فيها عهد الطفولة ، فكانت ذكرىات هذه الضاحية عالقة برأسى أرى ملامح صباحها ومساءها على كل شبر يقطعه القطار ، وأنخيل كيف أن الزمن قادر على طمس هذه المعالم من ذاكرتى . وكنت أسائل نفسى كلما ارتعشت بنا العربة أو صفر القطار على مقربة من محطة : هل سأجد فى سوهاج صديقاً عزيزاً مثل لطف الله ١٩ وتهدت وأختى الصغيرة ترفع صوتها طالبة أن تشرب فى نفس اللحظة التى كان أبى فيها منهمكاً فى وصف الحياة الرخية التى سلقاها هناك . أما أنا فقد كنت أذكر كيف ودعت صديقى لطف الله .. زميلى فى المدرسة واللعب والرحلات والسهر والذاكرة .

كان وحيد أبويه وأبوه أحد التجار .. يسكنون في المعادى شقة في الدور الأخير من أحد المنازل ، ويقع أمامهم قصر شتوى غارق في حديقته لم يكن أصحابه يفتحونه إلا شهورا قليلة طول السنة . أما بقية العام فكنت أراه أنا وصديقى لطف الله غارقا في الصمت والظلام . ننظر من نافذة حجرة صديقى فلا نرى شعاعا من النور إلا في حجرة البواب عم ياسين ..

وكان عم ياسين هذا رجلا عجيبا . أسمر ممشوقا دقيق العينين . أحب صديقى لطف الله بحكم الجوار ، وأحبني كذلك بمرور الزمن . كان يعطينا بعض الأزهار ويحدثنا عن القصر وأبنته بمثل أحاديث ألف ليلة وليلة . وأهم شيء شغل بالنا هو الجناح الداخلى المكون من حجرتين كبيرتين فوقهما حجرتان مثلهما لا يصل إليهما الداخلى إلا بعد مشى طويل في ممرات الحديقة . وعندما كان عم ياسين يتكلم عن هذا الجناح كنا نشعر بأن معلوماته يشوبها الغموض والشك والتحرج . على أننا في كل خريف كنت أشهد أنا وصديقى من بعد كيف تدب الحياة إلى هذا المكان . فعندما يهل شهر أكتوبر من كل سنة كانت الأضواء تلمع في هذا القصر جناحا بعد جناح ، ويكثر توافد العربات عليه تحمل طائفة من الذين يسهرون الليل وينامون النهار . وعندما يتقدم الليل في الضاحية ويسكن كل شيء فيها ، يتناهى إلى أسماع السكان على مقربة من المكان صوت موسيقى وغناء تدعو إلى رقص أرعن ، وقد يخرج من الباب شاب مخمور وهو يسب ويلعن بصوت مرتفع ، أو فتاة مخدوعة تمسح الدمع بأطراف منديل ، أو رجلى يتحسس جيوبه ثم ينادى على سائق عربته بصوت متذمر لا يلبث أن يغطى عليه أزيز المحرك .

كان عم ياسين يرى هذا العالم وينظر إليه بقلب حائر ، وكان بعض الضيوف يخرجون آخر الليل من الجناح الداخلى بعدما يتسلل نور الفجر عليهم من النوافذ . وكانوا بلا استثناء يغادرون القصر بوجوه مكدودة ونفوس متوترة يلمس بعضهم بعضا فى خوف وحذر ، كما يلمس الطفل سطح « البالون » المنفوخ .

وما يكاد الحريف يمر منه شهران حتى يعود الهدوء فيطبق على القصر . وفى الليل عندما أكون مارا على بابه أنا وصديقى لطف الله ، نرى عم ياسين على مقربة من حجرته أمام الباب جالسا وفى يده مسبحة ، وبعض كلاب الحراسة يحوم حول المكان . والهدوء ظاهر على وجه الرجل كأنه عليل اجتاز دور النقاهة . وفى إحدى ليالى الشتاء تقدم بنا الليل أنا وصديقى ونحن نذاكر فى حجرته هناك . وكان الليل دافئا نوعا ففتحتنا النافذة ونظرنا إلى المكان .. فرأينا حدود المصاييح التى غطى الضباب زجاجها ، وقد دارت مع الشوارع الأربعة التى تحدد موقع القصر . ورأينا الحديقة المظلمة والليل الهاجع والخضرة التى تتحول إلى سواد مع قدوم الليل .

وتناهى إلى سمعنا نباح كلب مطمئن .. عرفنا أنه أحد كلاب الحراسة فى هذا القصر . كان ينبح بحكم العادة لأنه لم يشهد فى هذا المكان حادثة ما . وجرنا هذا المشهد إلى أن تتخيل الجناح الداخلى الذى حدثنا عنه عم ياسين البواب .

وتحكم خيال هذه السن التى تدلف إلى الشباب — تحكم فى تصوراتنا ، فقال صديقى : لا بد أنه مخزن للخمر أو النقود أو سلاح الزينة .

فاعترضت أنا قائلا : ولماذا لا يكون مخزننا للمونة ، والحجرة العليا قاعة طعام ؟

فاستغرق لطف الله في ضحك شديد ، وبين لي أن مخزن المونة وقاعة الطعام أماكن لا بد من أن يدخلها الخدم في القصور . وكففنا عن التخیل وأخذنا من جديد نفحص بأعيننا عالم الواقع في تلك الليلة من شهر فبراير ، وكان المارون قليلين والهواء يهيمس في أوراق الشجر همسات متوجة غير طويلة . وبعد لحظة صمت كنا نحمق فيها إلى أرض الشارع تبادلنا النظر في عجب وصمت . لأن شيئا ما لفت نظرنا هناك .

كان هناك رجل يتحرك .. لا أستطيع أن أقول إنه يمشي لأنه كان مثل طوق من الحديد دفعته يد طفل وقعت عليه أعيننا في اللحظة الأخيرة .. حين تخلت عنه قوة الدفع ووصل إلى اللحظات الترنح قبل السقوط . خيل إلينا « من طول ما شهدنا السكارى في هذا المكان » أنه سكران لكن ملابسه وما كان يحمله معه جعلتنا نحزم بأنه متعب . عليه جلابب أسود قد شد على وسطه حزام وعلى رأسه تلفيعة ، وقد شد إلى أحد كتفيه جبلا تدلت منه قفة يدل منظرها على أنها فارغة من كل شيء ، وفي يده قصبه طويلة جدا جدا تعرف العين عندما تراه وتراه .. أنه صياد يحمل قصبه .

وجلس الرجل عند ناصية السور لكي يستريح . وجلس القرفصاء ثم انطوى لأنه طويل العود وأسند القصبه إلى سور القصر والقفة إلى جواره ، ثم أخرج سيجارة ليشعلها ورأينا عود الثقاب ينطفئ والسيجارة لا تشعل ، وعودا آخر .. وثالثا .. فكف الرجل عن المحاولة كأنما لم يكن

معه ثقاب . ولم تمض عشر دقائق حتى كان قد نام فى الوقت الذى كان
الهواء يحمل إلينا فيه نباح كلب مطمئن يأتي من صميم الجنيـنة ..

* * *

وفى الصعيد .. بعد نقل أبى .. كنت أرسل صديقى لطف الله .
وبمضى الأيام أخذت أشعر أن لطف الله ضرورة لى على البعد ، لأن
رسائله لم تكن تفاهات ولا تسلية وقطع وقت بل كنت أحس فى كل
رسالة أن له عقلية وقلما يشران بالخير . خصوصا عندما كاد يتم مرحلة
التعليم الثانوى .. وبعد أن كان يصف لى فى رسائله مظهر الحياة التى دبت
كالماء فى العود بعد نقل أبى من القاهرة سنة ١٩٥١ ، كان يحدثنا حديثا
شخصيا فى رسائله ويدعونى أن أجيء لأشهد الدنيا التى ولدت بعد غيابى
عن المعادى .

وكان أبى يعجب من وفائنا لعهدنا لأن الرسائل لم تنقطع بيننا على الرغم
من أننا لم نتلاق فى خلال العشر السنوات هذه إلا ثلاث مرات أو أربعا .
معظمها بفضل الرحلات . لكن .. لكن .. هذه هى الظروف قد
سمحت وعدت إلى القاهرة . لأن أختى الكبيرة قد تزوجت فيها ..
وكنت أنا ضمن قافلة الأفراح وأتاحت لى الظروف أن أتردد على صديقى
لطف الله الذى كان يدرس الطب .

وفى الحجرة التى طالما سهرنا فيها أطللت على المعادى ، وكان الفصل
صيفا ولم تكن فى الليل . وسارعت أسأل بلهفة : لطف الله .. لطف
الله .. هل عم ياسين لا يزال موجودا ؟ فأمسك ييـدى ونزلنا إلى
هناك .. ودفع لطف الله الباب الحديدى ودخلنا . فقلت له وأنا أخطو
الخطوة الأولى :

— عم ياسين ليس في الحجرة يا لطف الله ..
فلم يلتفت صديقي بل دخل إلى الجنية وهو ينادى باسم الرجل . أما
أنا فتسمرت في مكاني خائفا من الكلاب ولو أنني لم أسمع نباحا . ولم ألبث
إلا قليلا حتى برز الرجلان من خلال المشي المشجر ، وكان صديقي
يسأل عم ياسين مداعبا :

— هل تعرف هذا الشاب يا عم ياسين ؟
فحملني الرجل في وجهي وهز رأسه أسفا .. وضحكنا .. فعاد
يتفحصني من جديد . ثم ما لبث أن هتف « رشاد » .. « رشاد » زميل
لطف الله .. يا سلام .. لولا النونة التي في أسفل ذقنك ما عرفتك .
وعاد يمز يدي بالسلام .

ولم تمض دقيقة حتى عاد لطف الله يقول لعم ياسين في همس وحذر :
— تعال الآن يا عم ياسين لترينا الجناح الداخلي ، فالوقت مناسب .
وسارا أمامي وسرت وراءهما ، وأحسست أنني أشم في المكان رائحة
جديدة .. رائحة تبيينها قلبي ولم أستطع تسميتها في الحال . ولم أر خدما
ونحنى طريقنا إلى الجناح ، ولم يقابلنا أحد . فعللت ذلك بأن صاحب
القصر يغيب عن القاهرة طوال الصيف مثل العادة خارج البلاد .

حتى إذا ما وصلنا إلى هناك رأينا باب الجناح : موصدا ، ووقفنا نحن
الثلاثة ، وكنت في انتظار أن يفتح عم ياسين مثلا أو أن أرى الباب
مفتوحا . ولحت عيني لافتة مكتوبة على عتبة الداخل تقول : « المكتبة »
فنظرت إليهما فإذا بهما يضحكان . فأحسست أن لطف الله حين سبقني
إلى عم ياسين كان قد دبر كل هذا . فسألت : هل الجناح السري ..
مكتبة ؟! هل هذا معقول ؟

فضحك عم ياسين وقال : كان وكرا للقمار .. والعار .. ولكن ..
أقدار يا رشاد .. أقدار ..

وعدت أحلق في اللافتة « مكتبه » .. وسألت فجأة :

— لكن .. ما الحكاية يا عم ياسين ؟

فقال لى : إن لطف الله صرف نظرك بمهارة عن اللافتة الأخرى المعلقة
على الباب الخارجى .. لقد أصبح هذا المكان مدرسة ثانوية للبنات بعد أن
عاد ملكا للشعب ..

وضحكنا .. ثم سأله :

— وأنت يا عم ياسين ؟

فأجاب :

— أنا .. موظف حكومة . وبتى تلميذة في هذه المدرسة . انظر ..
ونظرت حيث يشير .. فقال لى : تلميذة في هذا الفصل .. وقد
كانت هذه الحجرة ألن حجرات القصر .. لكن .. طلع منها النور ..
بإذن الله .

وضحك .

وعند اجتياز الممشى الرئيسى فى طريقى إلى الخروج ، لم أكن أسمع
صوت خدم ولا نباح كلاب . وعادت الرائحة التى لمست قلبى عند
الدخول تلمسه من جديد .. لكننى فى هذه الآونة وجدت لها اسما ..
عرفتها ..

فقد كانت عمير الحرية .

قلب إنسان

كانت داره تقع عند مدخل العزبة .. نظيفة طيبة متواضعة .. مثله ..
يلقى عند بابها فانوسا يسهر طول الليل .. تتجمع عنده وتلعب فى لىالى
الظلام ونهجره فى لىالى القمر ، والغرباء والتائهون يعرفون به الطريق كأنه
منارة . وفى لىالى الشتاء كان يعلقه تحت ظلّه حتى لا تطفئه الريح .
ولم يكن الحاج ربيع غنيا وإنما كان يملك من الأرض ما يكفى
الإنسان ، وكان يعتبر أرضه ملكا للناس لأنه لم يتجب أحدا .. كان
بلا ذرية . وفتح هذا فى قلبه كل ينباع الخنان حتى غمر الناس فجعلته
القرية أبا لها . كان الأطفال يفسحون له الطريق إذا مرّ وهم يلعبون حتى
لا تلوث الكرة أذيال ثوبه الأبيض ، ويشعرون بطمأنينة تغمر وجهه
كأنها جزء من التى يهديها إليهم فى الليل نور مصباحه المعلق على باب داره .
والصبايا يغطين وجوههن بأطراف الشال إذا قابلنه فى الطريق ، أما
كبيرات السن فيبتسمن ويحيينه لأنه يندر أن ترى دارا قد دخلت من
فضله .. ربما كان ابنها أحد الذين يجتمعون عنده ليتعلم القراءة
والحساب ، أو ربما كان الحاج ربيع سببا فى فض نخصام بينها وبين
زوجها ، أو ربما كان وكيلا عنها فى إحدى القضايا ، أو حمل بنتها التى
تعسرت فى الولادة إلى مستشفى البندر فى عربته فكثبت لها النجاة ، ومنّ
الله عليها بغلام .
وتمنيت أن أكون مثل الحاج ربيع ، حين رأيت أهل العزبة جميعا
عاجزين أن يكونوا مثله .

(حلم آخر الليل)

وكان ذلك في يوم من أيام أبريل .. كان القمح يتأيل مع ريح شديدة صفراء معفرة يسمونها الخماسين . وكنت في الثانية عشرة من عمرى أنظر من نافذة الدار إلى منظر الحقول في خوف وانقباض . وسمعت بعد ذلك صراخا ينبعث من إحدى الدور .. وهتف الفلاحون بأن حريقا هبّ في العزبة . وكانت الدار واقعة في الشمال فساعدت الرياح الحريق على أن تبعث بالدور . وكان الحاج ربيع غائبا عن العزبة فتوهم الناس أن القدر قد تخلى عنهم لأنه كان صاحب مشورة في كل شيء .. واحتترقت عدة دور على الرغم من كل جهد ، وكانت الخسائر محصورة في المحاصيل والخشب . ومع غروب الشمس رأينا الحاج ربيع يدخل من الطريق الرئيسي نحو العزبة .. عرفه الناس ببوق السيارة التي يركبها وكان قد علم بالخبر في أثناء الطريق ، فرأيناه يجرى بسرعة مجنونة كأنه يريد أن ينقذ فلذة كبده الوحيد من بين ألسنة النيران .. وهو .. لا ولد له ، وداره المنعزلة التي لا تحمل وقودا بعيدا عن أخطار الحريق .

وعند دخول المساء كان في « المنظرة » اليمنى من دار الحاج ربيع عدد من أعيان العزبة سهرُوا يتحدثون فيما يجب أن يعملوه مع جيرانهم وذويهم ، فقد جعلهم الحاج ربيع يشعرون وكأن دار كل منهم هي التي كانت طعاما للنار .

كنت واقفا تحت شباك « المنظرة » أستمع إلى جدل الرجال ونقاشهم ، وأشب على أطراف أصابعى من حين لحين لأتلفد بما أراه على وجوههم من أفعالات وبخاصة على وجه الحاج ربيع .. وأخيرا سمعهم يقولون : « نعم .. هذا صحيح .. يجب أن نفعل ذلك .. يجب أن نفعل ذلك ١٩ »

وضحك الحاج ربيع مقهقهها وقال : لنفرض أيها السادة أننا جميعا مسافرون في سيارة واحدة .. فينا من هو ذاهب لحضور قضية هامة ، وفينا من هو ذاهب بزوجه للطبيب ، وفينا من هو ذاهب لمجرد التزهة .. ثم تعطلت بنا السيارة على الطريق . فهل تظنون أن صاحب الغرض التافه يكون أقل قلقا على مصير السيارة من صاحب الغرض المهم ؟ فقال الحاضرون : لا والله يا حاج ربيع .. سيحزن حتما من أجل المريضة التي تمنى ، أو من أجل الذى يريد أن يدافع عن قضيته . فقال الحاج ربيع : إن هذه العربة الصغيرة أشبه بهذه السيارة .. مصيرنا كلنا واحد .. فلماذا لا نعمل صندوقا من أجل المنكوبين .. واجمعوا الخطب من فوق درركم وضعوه هنا في الساحة الغربية .. ولا تخافوا .

فضحكوا وضحك الحاج ربيع وقال : لا تخافوا على الخطب الذى خلق للنار .. لا تخافوا عليه من السرقة فإنه سيكون تحت حراسة رجل من الذين تثقون فيهم ، وسأدفع له أنا أجر الحراسة .

وعندما أخذ الجميع فى الانصراف كنت أنا أتسلل من تحت شباك « المنظرة » عائدا إلى الدار وصورة وجه الحاج ربيع فى جلابيه الأبيض وشعر رأسه الذى يشبه رغوة الصابون .. لا تفارق خيالى .

وكان موعد الاجتماع عنده فى الليلة القادمة . وأعلن الحاج ربيع لهم قبل انصرافهم أنه سيسافر قبل طلوع الشمس إلى دمنهور وأنه سيعود قبل المساء ، وعلى الموسرين من الذين حضروا الاجتماع أن يبدءوا فى تنفيذ المشروع .

وقضينا طول النهار التالى بعد خروجنا من المدرسة ، نلعب فى آثار الحريق بقلوب خالية لا تعرف كدر الحياة ولا معنى الكوارث .. فقد

كنا صغارا ..

وجلس أهل العزبة قبيل الغروب ينتظرون عودة الحاج ربيع . وبدأ
الظلام يهبط وسكتت ريح الخماسين عن الهبوب بعد أن أنزل الفلاحون
كل الحطب من فوق دورهم ووضعوه في الساحة التي يملكها الحاج
ربيع . وخيم على العزبة صمت كالذي يخيم على ساحة القتال بعد انتهاء
معركة . وبينما أهل العزبة جالسة بالانتظار إذ بشاب من الشبان يبلغهم أن
أحد المارين بالعربات على الطريق العام أخبرهم أنه رأى عربة الحاج ربيع
غارقة في الحمودية .. عرفها بلونها ورقمها الظاهر .. وأن أهل القرى
المجاورة لم يجدوا فيها أحدا ..

وسمعت وأنا حزين إلى الفروض التي أخذ أهل العزبة يفترضونها ،
فقال أحدهم : أليس من الجائز أن تكون السيارة مشابهة لسيارة الحاج
ربيع ؟ .. ثم .. إن الحاج ربيع قلما يسافر وحده ..
وكانت الافتراضات كلها ضعيفة ، ليس المقصود بها إلا بثّ
الطمأنينة في قلوب الناس .. وخرج بعض الشبان بعربة إلى مكان
الحادث .. وطال الليل وامتد .. وكلما مروقت تأزمت الأمور وأصبح
الخطر شيئا محققا .

وعند منتصف الليل عاد الشبان الذين خرجوا بالعربة يؤكدون مع
الحزن الشديد أن السيارة هي سيارة الحاج ربيع . فعم الهرج والمرج ،
وأحس كل فرد في العزبة أن حريق البارحة قد هب من جديد .. في كل
دار .. وفي كل قلب .

وسمعت أحد الفلاحين يقول بطريقة عصبية :

— غير معقول .. معقول أن الحاج ربيع يموت ؟ واستغفر الباقون

الله ، وردّ عليه أحد الشيوخ في صوت مرتعش ينفي الشر عن الرجل الطيب وقال :

— من قال .. من قال إن الحاج ربيع مات ؟
وتقدمت خطا الليل .. والعزبة كلها ساهرة تسأل الغيب عن مصير رجلها المحبوب ، وفجأة لمع على الأفق مصباح سيارة كانت تأخذ طريقها نحو العزبة . وخفقت القلوب ، ونظر الفلاحون بعضهم إلى بعض .. نعم .. لقد أحسوا بما يشبه الوحي أن هذه السيارة تحمل خبرا ما عن الرجل الغائب . ولما بلغت من الطريق نقطة تجعل اتجاهها نحو « العزبة » أمرا مؤكدا ، انطلق الفلاحون على الطريق يسابق بعضهم بعضا .. انطلقوا يقابلون السيارة .. وكان الشبان أسرعهم جريا .. كل واحد منهم يريد أن يصل أول الناس إلى السيارة ليرى من فيها .
وكنت أنا مع الساهرين .. وكنت أجرى مع الناس . لم أكن أعلم إلا ليلة هذا الحادث أن الحب يمنح قوة روحية وجسمية لا تخطر على بال الناس ، فقد كنت أنا أول الذين وصلوا إلى السيارة . وقفت أمامها وحملت في داخلها وأنا ألهث .

ولم أصدق نظري .. فجعلت أهتف لأسمع الناس :

— الحاج ربيع .. الحاج ربيع ..

وهتف باسمه أقرب الناس مني . حتى وصل الخبر إلى العزبة فسمعنا زغاريد النساء توقظ سكون الليل .

كان الحاج ربيع يحكى حكاية سيارته التي سرقها لص من أحد شوارع دمنهور ، فسقطت به في ترعة الحمودية وهو يحاول الفرار بها ، وكان لا بد أن ينهى أعماله في البندر ، ولم يكن يخطر على بال الحاج ربيع أن القدر

سينهى الخبر إلى سكان العزبة . وضحك الرجل الطيب وقال :
— عال .. عرفت منزلتي عندكم .

ثم ضحك وأردف : حتى لو كنت مت فإنني سأعيش في قلوبكم
الطيبة .. عال .. وهل في الدنيا أجمل من هذا ؟..
واغرورقت عيناه بالدموع ، كأن ضعف الإنسان قد لحقه لأنه تذكر
أنه لم ينجب ، وإن كان كل أهل « العزبة » أبناءه .
وكننت واقفا أراقبه . كنت أحب ثوبه الأبيض وشعره الناصع كأنه
زيد البحر أو رغوة الصابون .. نعم .. وكنت أتمنى أن أكون مثله .
وفي صباح اليوم التالي كانت أعمال التعمير تصلح كل ما أفسدته
النار ، وابتسامة الحاج ربيع تشجع العاملين .

اليوم الموعود

آه .. ما أفضع دخول الليل على الوحيد والمريض !.. ولماذا لم يكن طويلا علىّ في السنوات الماضية ؟

هكذا هتفت وهى تغلق النوافذ فى ليلة شتوية كثيرة الرطوبة . وانقطعت عنها الحركة الضئيلة التى كانت تأتى من الشارع الهادئ ، فبدأت تعاني الليل من أول ساعة فيه .

وبيتها مكون من ثلاثة طوابق بما فيها الطابق الأرضى .. فى الشقة التى تحتها عروس جديدة فى شهرها الأول من الحياة بعد شهر العسل مباشرة .. أما السلامك فى سكنه زوجان قد كبير أولادهما . كتب على البيت أن يكون خاليا من الأطفال .. بعد ما تغرب الشمس تسكن فى البيت كل حركة غير الحركات العادية المحسوبة التى لا يشوبها ضجيج . لذلك تحس السست « نظيرة » كل مساء أنها انغمست فى الليل انغماسا ، وأنه يتخلل مسامها ويسرى فى نفسها كأنه شئ معنوى . حزن مبهم مثلاً أو ذكرى بعيدة لفقيد عزيز . فتقفل النوافذ إلى غروب الشمس وتلوذ بغرفتها ذات السرير الكبير .

والست نظيرة اليوم فى الخمسين من عمرها .. امرأة ذات مشاعر حادة حارة لا تخلو من الرقة ، والعيب فى مشاعرها أنها غير متناسبة مع دمايتها . لو أن زوجها كان شاعريا لعثر فى كيائها على حديقة للأزهار ، ولكنه كان واقعا فظا يتناول كل شئ عن طريق الفم .. حتى الحب . عاشرته سبعة أعوام كان انفصاليهما فى نهايتها شيئا طبيعيا جدا . فى

الفترة الأولى كان الأمل فى الذرية يغلب على مطالبه من الجمال ، فلما خاب الأمل فى الذرية — بسببها — اكتشف أنها قبيحة الوجه . وبحكم الطبيعة التى تعوض فىنا النقص كان لزوجها من جسمها الخصب لعبة لطفل كبير . وفى الفترة الثانية من العشرة كان حنانها عليه يسكن كل أمل ويشفى كل داء . فلما أحست أنه يعتبر كل ما تبدل تملقا وخوفا من الانفصال ، بدأت الفترة الثالثة فى حياة الزوجين .. وكان فيها زواج أخرى ، ثم زلزلة للحياة القديمة أدت إلى الانفصال .

* * *

وكانت الست نظيرة وهى تقفل الشبايك كل ليلة تحس أنها ممسكة بجزء من الشيء الذى خرجت به من الحياة .. وهو كل ما خصها من الدنيا . هذا البيت الذى تسكن الشقة العليا منه .. من مؤخر صداقها وما ادخرته من زوجها وما ورثته عن أبيها . حولت هذا كله إلى بيت من ثلاثة طوابق ..

« لو أن لى ولدا يرثه ، أو حتى بنتا ولو كان زوجها شريرا يتعجل يوم وفاتى ، ذلك خير من لا شيء ، يا رب » .

ثم تستلقى على الفراش بعين دامعة . وتنظر إلى الصور المعلقة على الجدران فلا ترى فيها إلا أحبابا راحلين . أباه وأمه . ليتها كانت أرملة لحبيب راحل ، كانت مستعدة أن تهب له أكثر من ذاتها — لو كان ذلك ممكنا — لكنه لم يكن مستعدا ، فخرجت من بيته بالكره .. ذلك هو زوجها .

ولها أختان فى المدينة لا تكثران من زيارتها إلا إذا اشتد بها المرض .. ذلك مفهوم ! هما وأولادهما ينتظرون رحيل الحارس .. موت الست

نظيرة .. وقبل أن تستقر الجنة على التراب يتناهبون أطايب الموروث .
وعندئذ تحركت « المزينة » في صدرها .. مزينة الربو . وضافت
أنفاسها تماما ، وجعلت تفكر في اهتمامها البادى بهذا المهذوم الذى ينظر
إليه الورثة ولا يرونها إلا من خلاله . وعلى حسب الظروف والأحوال
تبدو بألوان وأشكال ، فأحيانا تكون قبيحة المنظر عندهم بطيئة الحركة
لا تريد أن تتقلقل ليأخذوا كل شيء ، وأحيانا تبدو فى مهابة الذى يترك
ميراثا يذكره بعده الوارثون بالدعاء والترحم .. لكن ذلك نادر .

ودق الجرس فى الشقة التى تحتها ، فأدركت أن الليل قد مر جزء منه .
ها هو ذا قد عاد من السهرة . إن الحياة فى شقتها هى تجميع عفشها وتحل
خيامها للرحيل .. وفى الشقة الوسطى تبدأ ..

لعلها قامت الآن لتجهز له عشاء . كانت تتسلى بالقراءة — تلك
العروس — أو بتطريز الأحرف الأولى من اسمه على زوايا مناديله حتى
يعود ..

عندئذ تركت كل شيء وقامت لتخلو له . وجلسا متقابلين على المائدة
الملحقة فى حجرة النوم لأخذ العشاء الخفيف ..

وقالت الست نظيرة وضجيج السعال يملأ تجويف صدرها :

— كنت أقدم له فنونا من السعادة .. لكنه لا يرضى .. إنه يريد
أطفالا .. وما ذنبى ؟ .. لم يخلقنى الله قادرة على منح الأطفال .

ثم سكنت . كان هناك صوت يسأل عن المسئول عن هذا الخل ؟ لو
كانت سليمة من هذا الخل ما واجهت الليل وحدها هكذا . إن دخوله
كبيب على الوحيد والمريض والحزون ، وهى الليلة تحمل الثلاث الشارات
جميعا .

وجاءتها قهقهة من خلال السقف . إنها العروسان في الحجرة التي تحتها . ما أشبهها وهي فوقهما بقايا الزهرة تنزلق من الثمرة بعد أن تمعد الثمرة . مستسقط حالا على الأرض ولن تذكر الأرجل أنها بقايا زهرة .. أبدا .

* * *

على أن نوبات المرض التي كانت تأتينا لم تكن تخلو من ملذات . كانت تتقبل الهدايا وتتطلع إلى النفس البشرية عارية مكشوفة . فمثلا يأتي « صلاح » ابن أختها زينب بأكياس السكر والليمون ويحدثها بعينه المتملتقين عن عجزه عن الزواج من أجل المهر وارتفاع أسعار المعيشة : « كل شيء جاهز إلا المهر يا خالتي .. ولو كنت أجد من يقرضني مائتي جنيه ولو بالربا لاقترضت » ، ثم يسكت ليقول وكأنه تذكر شيئا : « طيب .. ولكن كيف أسدد المبلغ ؟ ثم ينظر إلى السقف .. إلى أعلى ، ويدعو لها بطول العمر .. »

وحمدى ابن أختها « توحيدة » .. أخذ منها نقودا ليشتري دواء فغاب وغاب ، ثم عاد باكى العينين .. « ضاعت النقود يا خالتي .. سقطت الورقة ذات الجنيهات الخمسة » .

وربما كان ذلك حقيقة ، لكن الحقيقة في موطن الشبهة أضعف بكثير من الباطل إذا ظللته الثقة . إنهم طامعون .

ويمتد الليل بالست نظيرة لا يؤنسها فيه إلا الفكر .

« ولو كانوا يعدونني بالصدقات ، أو لو كنت خالية من الميراث فهل كانوا يستعجلون وفاتي ؟ ولماذا لا يفعل الأبناء مع آبائهم ما يفعله الوارثون الغرباء ؟ .. »

ولم تجب عن السؤال لأنها تذكرت شيئا .. تذكرت أن توحيدة سألها
ذات يوم عن صحة ما نعى إليها .
— خيرا ؟ ..

— سمعت أنك يا أختي قد كتبت نصف البيت لصالح ابن زينب ..
إن حمدي يحبك أضعافا مضاعفة وهو لا يزال محتاجا إلى نفقات ، أما
الآخر فقد توظف .

وعندئذ علاها الوجوم وودت لو أنها هدمته بيديها . والسؤال المؤلم
يؤلم ولو كان صادرا عن سذاجة أو حسن نية ، كله سواء . والست نظيرة
لم تكتب لأحد شيئا ، وإنما هم يوحون إليها بما يدعون سماعه .
وشيثا فشيئا كرهت الميراث والوارثين وأوشكت أن تكره المورث
نفسه .. زوجها . وصممت على خطة جديدة .

ولما دخلوا عليها في مرضها القاسي وجدوا عندها محاميا ، فراغت
أبصارهم وامتألت حلقاتهم بالنزاع ، وعندئذ أشبعت خالتهم فضولهم
وقالت إنها ستكتب وصية .. ولن يكون ما لها من نقود وأثاث وعقار
مقسوما بالتساوي بينهم . إنها ستخصص الذين يخصصونها وتبر الذين
يبرونها . إنها تعرف أن أيامها معدودة ، وقد رأت في منامها أن الريح
أطفأت مصباحها وهي طفلة على الطريق وعندئذ تاهت في الظلام .
وما المصباح إلا العمر ، وما الظلام إلا الموت . إن هذا المحامي كتب
الوصية — قابلة للتغيير في كل لحظة — وسيفضها بعد موتها ليعرفوا كل
شيء .

وكان هذا العمل أشبه بطلقة الذعر التي تعلن بدء السباق — فكف
صالح عن ذكر النقود أمام خالته ، وعاد حمدي يجدد الولاء ويقسم أن

المبلغ قد ضاع يوم ذهب يشتري الدواء ، وجاءت الأخوات يعودونها ، وترك أحدهم لها سبحة حجازية ، وترك الآخر لها مصحفا تحت الوسادة جلده من اللون الأخضر .

ولما خفت نوبة المرض وعادت شبه عادة .. لم يخف طوفان الحب ، ونام صلاح عندها ليالى متعاقبة رغم بعد الشقة بينه وبين عمله ، بذلك لها رجلها ويصب على يديها ماء الوضوء الساخن .

وفي نوبة المرض التالية دخلوا فوجدوا المحامى فأدركوا أنها تغير الوصية ، وكان حبهم محموما وتزاحموا على حجرتها كما يتزاحم المجاذيب على مقصورة . وأهدى زوج توحيدة إليها شالا من القطيفة ، أما زوج زينب فقد أهداها بسجادة للصلاة . واشتبتك الأخوات ذات مساء للتزاحم على السهر في راحتها ..

وفي اليوم التالى رأى المحامى .. فأدرك الورثة أنها تغير أحد البنود . فتضجر صلاح ولعن المال ، وانتهر حمدي فرصة غيابه وحمل عنه رسالة السهر . فكان ذلك مدعاة لعودة الأول إلى المبدأ .

لم تكن الست نظيرة تريد منهم شيئا ، لكنها شعرت بلذة السائق حين يقود قطيعا كبيرا يعود من التوت ، عصا من الخيزران ، فاسترسلت في الأمر ..

ثم ماتت الست نظيرة .. وحرص جميع الورثة يوم وفاتها على أن يظهروا بمظهر من أصيب بكارثة عاطفية مرة ، ولا شيء أكثر من ذلك . وحملت غالية ، وودعت غالية وهدموع غزيرة . وفي مكتب المحامى اجتمع الورثة .. كان صلاح يتهل إلى الله ،

وحمدى يتمم فى صمت ، والأختان تلبسان الحداد .
ثم قرئت الوصية ، قال المحامى :

« توصى نظيرة بنت فلان بكل ما تملك من عقار ونقود ..
وتوقف المحامى عن القراءة ، ونظر فى وجوههم ووضع الورقة وأشعل
سيجارا ، كأنه شاء أن يحاكى موكلته فى عبثها بأعصاب الورثة — ثم
أكمل :

« لست فتيات غير جميلات يخترن بالقرعة بين لقيطات ملجأ
الحرية » ، ليكون هذا المبلغ ضمانا لحياتهن وأشبه ببائنة « دوطه » . أما
المنقولات فتقسم بين توحيدة وزينب بالتساوى » .
وخرج الرجال أولا من المكتب . أما النساء فقد غلبهن البكاء إلى حد
يصعب وصفه .

وفى الطريق ، سأل صلاح بنأر هستيرى :

— ولماذا لقيطات ملجأ الحرية ؟.. لماذا ؟..

فأجاب حمدى :

— إنه كانت ترى أنواره من نافذتها فى الليل عندما يكون الوقت
صيفا ، والنوافذ كلها مفتوحة .
وأطلق ضحكة مجروحة .

لقاء في الصيف

كنت أعرفه ولم أكن رأيته منذ ثلاث سنوات ، وكان زميلي في شركة التأمين الكبيرة المشهورة في مدينة الإسكندرية ، وكان بيننا مثالا غاليا للوفاء والحب والألفة .

وفي بعض الأحيان كان يضايق الناس بوفائه .. إذ يسبغ عليهم من اهتمامه ورعايته وتطوعه بما قد يجلب له المتاعب ، ما يثير حجل بعضهم أو ضجره منه .

و كنت أعرفه أيضا .. يتورط لجماعة الأصدقاء فتتعضى على حسابه ، أو لزميل نصاب يعيش على مال غيره .

ولم يكن طليّ الحديث ولكنه كان بشوش الوجه ، ولم يكن وسيما ولكن العين تحب أن تتأمله . لا يعتمد على مثل عقله في الملمات ، ولكنه كان ماهرا في تنفيذ ما قد يسند إليه .

كنا نضحك منه دون أن نستخف به ولا نحتقره ، وإذا اجتمع شملنا في مكان ما وتخلف ، أحسنا بقلق مبهم ناشئ من تخلف شيء غير أساسي لكنه نافع ، كالقلق الذي يحدث من فقدان الكأس الفارغة في مكان خلوى مع جماعة بين يديها زجاجة من أجود الخمور .

و كنا حين نتحدث عن حينا أو مغامراتنا يسخر منا بابتسامة طويلة أو ضحكة قصيرة . كان يتهمنا بالطيش أحيانا ، وأحيانا أخرى بسعة الخيال . وكان أطول الأصدقاء لسانا وأبرعهم سبابا يقول له :

« إن أجمل ما فيك أنك ذو إحساس مباشر ، لا يحتاج إلى كل

ما اخترعه الإنسان المتطور والعقل المتنور من خزعبلات حول العواطف الجميلة .. »

فهبز رأسه ويتنسم مبدئياً أسفه العميق لانعدام فهمه العميق ، مما يحمل الصديق الآخر على أن يستطرد قائلاً :

« لو فرضنا أن المأكولات فقدت طعمها ، فإن ذلك بالنسبة إليك لا يعنى شيئاً أبداً . لأنك لا تحس بوجودها إلا عن طريق امتلاء المعدة .. وهذه هي فلسفتك في الحب ، هل فهمت الآن ؟

* * *

ومضى على فراقنا ثلاث سنوات لم أره خلالها .

كانت الجماعة قد تفرقت . فبعض الذين درسوا الحقوق خرجوا من الشركة ودخلوا سلك القضاء . وبعض خريجي التجارة آثروا وظائف الحكومة . وبعض النشطين من المؤسسين المغامرين اشتغلوا بالأعمال الحرة . وبقيت أنا في الإسكندرية .. آخر فرد في الجماعة بعد أن انتقل كمال أفندى — الذى كنت لم أره منذ ثلاث سنوات — موظفاً في حسابات الحكومة في مدينة القاهرة .

وحين وقع بصرى عليه لم أجزم بأنه هو .

إن مرور الأيام يعطينا أو يأخذ منا ، لكنه على كل حال لا يدعنا على حال واحد ، ومن خلال سمرة فصل الصيف التى تتركها شمس الشواطئ على الوجوه ، ومن خلال ذقن نما شعره قليلاً ، ومن خلال سحابة خفيفة ولكنها حقيقية ، سحابة من الهموم — من خلال كل هذه المواقع عرفت وجه كمال أفندى .. ذلك .. لأن الوداعة والطيبة والتسامح التى هى لباب خصاله كانت واضحة لعينى ولكن على هيئة أخرى .. على هيئة استسلام

نهائى لا يعرف الجدل .

كنت جالسا على الكازينو ، وهو على مقربة منى يقف بين يديه صحيفة سياحية باهتمام وعدم مبالاة الفارغين . كان يتسكع فى قراءتها كأنه يضيع وقته على قارة الطريق . وكانت نظراته البطيئة إلى الصحيفة تقول : علام العجلة ؟ وبين الفينة والفينة ينظر إلى الأمام نحو البحر ثم يعود إلى ما كان فيه .

وهمت أن أقوم فأضع كفى على عاتقه وأنبهه إلى وجودى ، ولكننى عدت فذكرت أن الوجوه قد تتشابه وأنه من الجائز أن يكون رجلا غيره ، فأطللت من نافذة الكازينو التى تنظر إلى رمال الشاطئ ورفعت صوتى هاتفا وظهرى إلى الجالسين وكأننى أنادى على طفل يعث فى الرمل :

« كمال .. كمال .. يا كمال »

— عيناه وأنا أعانقه تتغرغر وتحس بشرة وجهى بذقنه غير المخلوق .

* * *

— أهلا يا رجل .. أين أنت من زمان ؟

وبدأت علامات عرفناه بها قديما تأتى إلى قسماته . وجلسنا نستعيد الماضى ، ونذكر « محمود » وكيل النيابة ، و« عثمان » صاحب مكتب الاستيراد والتصدير ، و« حامد » الذى تخلى عنه الحظ دون بقية الأصدقاء .

واستطردت كأنما لأستثير ما فى نفسه ليقول مثل ما قلت له . وأخيرا تنهد ومال نحوى يذكرنى بما قاله له بعضنا قديما ، من أنه « مخلوق ذو إحساس مباشر لا يؤمن بما اخترعه الإنسان المتطور والعقل المتنور من خزعبلات حول العواطف الجميلة » فقلت له :

— نعم أذكر .

فأجابنى :

— لكن الذى حدث لى يعد أن فارقتكم كان عكس ما تعلمون .

— هل لك قصة ؟

— نعم ، وسأحكىها لك .

* * *

ككل العزاب كنت أنتقل من مسكن إلى مسكن ، وأنت تعلم مقدار حبى للعزلة وخوفى من مشاكل الحب .

فكدت أكتم ضحكى حين رأيته يتكلم عن الحب بنفس السذاجة القديمة . واستطرد :

كان يحدث أن أسكن فى بيت فىأخذ بعض الجيران فى مناوشتى فأرحل عنه . ويحدث حيناً آخر أن أشعر بأنتى فى صحراء فأرحل باحثاً عن الأُنس . وأنت تعلم أنتى من العزاب الذين لا يدخلون بيوتهم إلا آخر الليل .

« قلت فى نفسى : هذه هى الروح القديمة ستبدأ فى الظهور » ، فضحكك وضربته على كتفه وقلت له : أكمل .

فقال :

— وفى منزل مكون من دورين فقط ، الأسفل مخازن ودكاكين والذى فوقه مكون من شقتين صغيرتين فى حى حديث الإنشاء غير متمتع بالنظافة العامة ولا بالنور .. فى هذا المسكن أخذت شقة من حجرتين . وجدت أنه بعد ما عدت مساء إحدى الليالى من السهرة ودخلت ، أن سمعت طرقة على الباب ففتحت ، فإذا بى أرى أمامى سيدة ..

« فحملت فيها أستشف دخيلة نفسها ، فإذا بها تخيب أملى »
 — لم تكن إلا صاحبة البيت الساكنة فى الشقة المقابلة ، سيدة مسنة
 مريضة ، سألتنى وصوتها يتذبذب فى ارتجاف من الألم عن نعاى أو ليمون
 أو أى شىء يوقف المغص . وعرفت أنها وحيدة وأنها محتاجة إلى عناية .
 وكان الوقت شتاء ، ولست أدرى لماذا وجدت فى منزلى نعاى .. كنت
 أحب أن أشربه مع الشاى ، فأجبت طلبها . ولما أيقنت أنها وحدها
 دخلت معها فصنعت لها شرابا دافئا وملأت لها إحدى الزجاجات بالماء
 ووضعتها عند قدميها . وانتظرت حتى أرى ثمرة علاجى فإذا بيوادر
 الراحة تطفو على صفحة وجهها المتألم ، ودعاء خجل متعثر تهمس به . ثم
 سألتنى قبل أن أنصرف :

— أليست هذه الليلة ليلة الجمعة ، كأتى ناسية ؟
 فأكدت لها صحة ما تقول ، فأبدت قلقها لأن بنتها قد تأخرت فلم
 تعد من السفر حتى الآن .

وهملت أن أسألها عن بنتها وعن تفاصيل حالتها العائلية لأننى لم أحس
 أنها وحدها قبل ذلك ، لكننى آثرت ألا أتدخل فى شغون الغير .
 ولم تمض دقائق حتى سمعنا وقع أقدام على السلم . إنها هى بلا شك ..
 فالصاعد إلى فوق لا بد أن يكون لى أو لها . وأنا لا أحد يأتى إلى . وكان
 من الطبيعى أن أفتح الباب للقادمة . فلما فوجئت برجل فتحت فى عيني
 جميلتين فيهما اتساع وجهه وتعب ، ثم دخلت وشاركت أمها فى
 استدعائى . ولأول مرة أحسست بخزعبلات العواطف تلمس قلبى
 لمسات مترددة لم تلبث أن تحولت إلى قبضة تدق على بابها بالحاح ..
 « ورجعت بكرسى إلى الوراى وقلت له : يعنى بالاختصار أحببت »

— لا تقلق .. كن صبورا .. كان قلبي مثل أرض « الملاحه » عند مدخل المدينة ، فأصلحته هي ثم زرعته بالحلب .. هل ترى لى يا صديقى ؟ إننى أرى فى عينيك علامات الرثاء . ليتك تضحك منى كما كنت تفعل قديما .. اضحك ليخف عني الحزن . إن سخريه الناس من هومنا قد تخدعنا عنها فتوهم أنها صغيرة ، المهم . إننى عرفت أنها مدرسة فى مدينة قرية ، وأنها تقطع الطريق ذهابا وإيابا إلى مدرستها فى قطار السكة الحديد ، وحدث أن تأخر بها القطار فى هذه الليلة التى احتاجت أمها إلى عناية .

وشيثا فشيئا ، وعن طريق رعاية هذه السيدة ، أحسست وأنا بلا أم منذ حادثة سنى أننى وجدت أمى بعد أن كبرت ، وأن لذة كبرى تتحقق لى لأنى عملت من أجلها شيئا . وبدأ الليل يأخذ صورة أخرى فى خاطرى حين كنا نجتمع نحن الثلاثة ، فيتحدث الشبان — أنا والفتاة — عن مشاكل الحاضر ، وتحدث العجوز عن آلامها وعن لذتها حين ترى باسمه فى ابنها المتزوج البعيد عنها وفى بنتها القرية منها .

ولعلك تسألنى عن سر انتصار هذه الفتاة دون غيرها من الفتيات ؟ كان الجو الذى نمت فيه علاقتنا ساحرا متلصصا فى وقت واحد ، وكان مشبعا بالخيال فقد حدث أن تصورت مرة بعد مرة ونحن الثلاثة فى جو الحب والود والطمأنينة أننا زوجان ، وحدث أن استغرقت فى خيالى حتى لم أعد أفرق بينه وبين الحقيقة . وكنا نتكلم ذات ليلة والأم راقدة فى فراشها متدثرة بأغطيها ، فانتبهنا فجأة إلى أنها مستغرقة فى النوم ، عند ذلك تبادلنا النظرات وقررنا أن نتسلل ونتركها ترتاح . وفى طريقى إلى مسكنى أوصلتنى إلى الباب فاشتبكنا فى عناق لم أذق مثله من قبل . ثم

درج الحب في طريقه قدما إلى الأمام . لكن .. آه يا صديقي ، وقع ما لم
يخطر لي على بال .

ثم حدث أن نظر نحوى قائلا : لم لا تسأل عن النهاية ؟
فأجبت باستخفاف لأخفف عنه بعض ما يقاسيه :
— مفهوم أنك فقدتها بطريقة من الطرق .
فأوقفني بإشارة من كفه وقال :

— وماذا لو علمت أنني رأيتها بعيني هاتين مع رجل آخر ، وعلى حالة
تجزم أن ما بينهما ما يحرم على النفس الكريمة أن ترتبط بامرأة مثلها ..
هيه .. ما رأيك ؟؟

وأخذ يدق الأرض بقدمه ويهر رأسه ويسأل في شرود : ما رأيي ؟
فأدركت أن الحزن الحديث العهد قد فعل فيه ما فعل ، فرجوته أن
ينسى على الأقل أن يحاول ، فقال :

— ماذا تراني أفعل الآن ؟ إنني أتنقل وأتنقل طالبا من الأماكن الغريبة
أن تلهمني أشياء جديدة .. لكنني حتى الآن ومن شهرين مضيا لم أحصل
على قليل أو كثير .
فقلت في حنان :

— عندى اقتراح . تعال عندى في الريف ، ستقيم في مزرعة صغيرة في
ضيافتي لمدة أسبوع وأظن أنك ستوافق .

* * *

وكان الصباح نديا ونحن جالسان في شرفة واسعة تطل على حديقة
المنزل وأمام كل منا لبن وفاكهة . وبدأ « كمال » حليق الذقن هادئ النفس
نوعا ما ، وتكلمنا في أشياء معظمها يدخل البهجة على القلوب . وفي

عصر ذلك اليوم سألتني ونحن نجتاز مدخل القرية :
— أليست هذه بقايا مقبرة ؟

فضحكت وقلت :

— نعم .. كانت قديما تشوه مدخل القرية ، فنقلوا ركامها ولم يبق
منها إلا هذا الضريح وما يحيط به من ملحقات ، وهو لأحد أولياء الله كما
ترى ..

وانتهى الأمر . ولم يسألني عن شيء ، ولم أوضح له ما قد يكون
خافيا . وبعد مرور يوم آخر ونحن نتناول فطور الصباح قال لي :
— إن الفتاة التي حدثتك عنها لم تخنى .. لقد بالغت فيما قلت لكي
أظهر بمظهر المضطر إلى الترك . لكن حقيقة الأمر أنها تزوجت غيرة
بمحض اختيارها وبلا ضوضاء .

ولم أجد بدا من أن أصدقه .. هو صاحب القصة ، وهو الذي
يروينا .. ثم هو في ضيافتي .. ثم .. ألا يجوز أن يكون قد أصيب بهزة
عصبية ..

ولم يبق في الضيافة إلا يوم واحد .

وفي الليل حين كنا نتسامر والقمر يريق أشعته الوديعه على رعوس
الشجر والأرض والحقول ، وفي فترة صمت شبعنا منها نفوسنا سمعته
يتنهد ، وقال لي :

— اسمع يا صديقي .. إنني لم أقل لك الحقيقة منذ أول الأمر . إنها
لم تخن ولم تتزوج ، إنها ماتت .. ماتت .. ماتت .
وانخرط بيكي بعنف .

فتركته يفعل حتى إذا ما أفاق سألته في مثل رفق الأمهات العاقلات إذا

ضبطن أحد الأبناء متلبسا بكذبة ..

— طيب .. ولماذا نزلت هذا السلم .. لماذا لم تقل من أول الأمر ..
فأجاب يتوسل :

— لأننى أريد أن تقول كلمة واحدة .. تقولها بعقيدة وحرارة لتصل
إلى قلبى .. لتقول لى : إن الحالة الأخيرة خير من الفرضين الأولين .. خير
من الخيانة أو زواج رجل آخر . فأنا أريد أن أقنع نفسى ولكن عن
طريقك .. لأنها يا صديقى كانت صاحبة الأرض .. أقصد أنها أصلحت
قلبى كما تصلح الأراضى البور ثم زرعت فيه الحب .. ولذلك كانت
صاحبة الحق فيه . فهل تقول لى هذه الكلمة فأستطيع أن أنساها ؟
ودمعت عينى وقلت له وأنا أقرب مقعدى من مقعده :

— اسمع يا كمال .. أتذكر المقبرة التى رأيتها عند مدخل القرية .. تلك
التي تقلوا ركامها إلى مكان آخر .. إن ركام هذه المقبرة يكون هذه
الحديقة .. وفى القديم كانت مستنقعا ثم ردموه .. وها هى اليوم كما
ترى .. لقد ظل الفلاحون سنوات يخافون زرع هذه البقعة التى طالما
خافوها .

ثق أنك ستنسى ..

وأخذت بيده بعد قليل حيث دخل إلى فراشه .
وفى الصباح بعد أن تناولنا طعام الفطور رأيت صديقى يقلب فى الأفق
الواسع عينين هادئتين ويتنفس طويلا ويقول فجأة :

— سعيد .. ألا تحس معى أن النسيم اليوم أكثر عذوبة ؟ ..

فأجبت وأنا أخفى ابتسامى :

— نعم .. نعم .. وسيظل هكذا دائما .

حنانك يا أبى

كانت هذه الليلة هى التى قرر فيها نهائيا أن يترك الدار .. فقد انقضى اليوم الأول من أيام العيد وأخذت فرحة القرية تنفث .. وآوى كل إلى فراشه يفكر فى عمل اليوم التالى ، وكأنما انقطعت الصلة بينه وبين الحقل منذ شهر كامل .

أما « سعيد » .. الذى قرر نهائيا أن يترك الدار ويرحل ، فقد أعد الخطة بإحكام حين جمع ملابسه وخبأها فى مكان ما ليأخذها وهو خارج فى الصباح الباكر ، والكل نائمون ليرحل .. ليرحل إلى .. إلى حيث لا يدرى أحد حتى أبوه وأمه .

ولم ينم سعيد طول الليل . كان يغمض عينيه ليتخيل أنه بعيد عن هذه البقعة التى ولد فيها ، ويستعيد تفاصيل كل ما حوله من لون الباب وظلمة الدهليز ، إلى ملامح أمه الطيبة المطيعة ، إلى وجه أبيه الذى لم يتسم له .. عندما يفعل كل ذلك يحس حرارة الحنين وهو لا يزال فى الدار ، فضلا عن الخاوف من المجهول الذى سيتعرض له غلام فى هذه السن .

كان يرقد بجواره أخوه الذى يكبره بعام واحد .. وتحت نور المصباح القروى الساذج الضئيل النور — لذ سعيد أن يتأمل وجه أخيه .

كان مستلقيا على ظهره وملامح وجهه وهو نائم واقفة عند تعبير لا يتغير كأنه يجتاز حلما جميلا . ومن ملابسه الداخلية فاحت رائحة عطر من الذى يستعمله الفلاحون مرتين فى السنة .. يعنى فى العيدين . ودمعت عيناه حين تذكر من جديد أن أخاه هذا الذى يجتاز الحلم السعيد واليقظة

السعيدة ، من أهم الأسباب التى ستجبره على الفرار من الدار .

* * *

وصاح ديك على السطح مؤذنا بقرب الفجر ، فنهض من مكانه وهو يسمع دقات قلبه وألقى على وجه أخيه نظرة كبتها الدموع .
وبعد أن أقفل باب الحجرة وقف قليلا عند الحجرة التى تنام فيها أمه .
وخيل إليه أنه على وشك أن يناديها ليودعها ، فعجل بالانصراف قبل أن يغلبه لسانه ، ولو أنه كان جاف الريق عاجزا عن أن يتكلم .
واتجه نحو الخبأ فأخذ أشياءه وانسرب فى الدهليز يتحسس طريقه إلى الباب . وارتفعت فى سماء الدار قطقطة الأوز فغطت على الحركة حتى أقفل الباب ورائه وانصرف .

وأخذ يحد السير كأنما كان ورائه من يتعقبه . ولفرط خوفه لم يحاول أن يلتفت ورائه ، متوقعا بين وهلة ووهلة أن يحس بثقل كف على كتفه أو صفعه على وجهه . ولم يكن فى حسابه شيء أكثر رهبة من الخفير الجالس عند حدود القرية ، فإنه ربما تنبه له وعند ذلك ستتهار الخطة كلها .
وسياخذه إلى أبيه ولا يكون هناك إلا البقية المؤسفة . لكنه لحسن حظه وجده جالسا على المصطبة محتضنا بندقيته وقد غلبه النوم .. وعلى الأفق قمر هزيل وتصايح الديوك على السطوح يصل إليه تباعا كأنها فى سباق .

* * *

وعلى الطريق الزراعى العام كان كل شيء هادئا .
لكن نفس سعيد كانت شديدة الجيشان .. فيها ندم وأسف وعلى خديه دموع لا تجف !!
وكان متأبطا صرة ملابسه وفى جيبه نقود تكفيه عشرة أيام ، جمعها

من مصروف العيد ومن مناسبات أهمها المنح التي كان يأخذها من خاله .. ولم يذهب إلى محطة سكة الحديد القريبة .. بل اختار محطة أبعد .. ليركب منها بأجر أقل إلى مدينة « طنطا » حيث لا يسكن هناك أحد من أبناء قريته ، ولا يخطر على بال أبيه — إن فتش عنه — أن يذهب إلى هذه المدينة .

ولم يكن يقلقه شيء إلا أمر المبيت .. لكن سرعان ما خطر على باله اسم زميل له كان يتعلم معه في مدرسة القرية . وكان هذا الزميل أكبر منه عمرا وأكثر مالا .. ومن إحدى القرى المتاخمة .. وكان بينهما صداقة . وعلى أساس البجوحة التي يعيش فيها زميله يمكن أن يبيت عنده عدة ليال حتى يدبر لنفسه عملا .

وما أن ارتفع النهار حتى كان على باب مدرسته يسأل عنه ، وأخذته الدهشة حين رآه لكن الحب غلب على كل شيء . وذهبا معا إلى المسكن المشترك الذي يقيم فيه الطالب مع غيره . وعند هبوط الليل كان القروي الصغير يقص على صديقه ما دفعه على الهرب من أبيه :

« أنت تعرف أن أبى هو الخياط الوحيد في القرية ، وهو لذلك يعيش في سعة من الرزق . وليس له من الأولاد إلا أنا وأخى « سعد » الذى يكبرنى بسنة واحدة . لكننى عشت بين أبى وأمى — وأبى على الخصوص — وكأننى غريب عنهما .

ولم يشجعونى على الكلام مرة ونحن على الطعام ولا حين يجمعنا السمر . وكنت كلما حاولت أن أشارك فى حديث أو أدلى برأى سخر منى أخى الكبير وانحاز إليه أبى . أما أمى فلم تكن لائمة أو ساكنة لذلك فإنى لم أحس أننى واحد من هذه الأسرة يوما من الأيام .

وبمرور الزمن أصبحت أكره أخى ، وكان أبى أشبه بالعصا التى تقلب النار كلما تمدت . الأعمال فى الدكان مقسومة إلى قسمين .. أحدهما فنى مشرف والآخر عادى تدخل فيه أعمال الخدمة والنظافة . ولعلك تستطيع أن تعرف نصيب كل واحد منا على ضوء ما حدثتكَ عنه . ولن أقص عليك كل شئ فى حياتنا لأن هذا غير ممكن ، ولكننى سأقص عليك تفاصيل حادثة وقعت لنا قريبا وكانت هى آخر عهدى بدار أبى ، لأننى لم أطق الإقامة فيها بعدها .

كان ذلك قبل العيد بشهر ، وكان أبى غائبا عن القرية .. بات ليلتين فى الخارج ليشتري لنا مطالب العيد .

وكان أخى « سعد » بطبيعة الحال يقوم مقامه أثناء غيابه . وكنت أرى فى عينيه نظرة الزهو والخيلاء وهو مكب على جلباب من الصوف لأحد أغنياء القرية يعمل فيه بإيرته ، وأنا جالس على ماكينة الخياطة أحبك قميصا رخيصا لأحد الفلاحين . وقال لى سعد فى فترة الغداء :

— هل تعرف لماذا سافر أبوك ؟

فقلت باختصار ومرارة :

— لا . طبعاً .

فعادت الابتسامة المزهوة ترفرف على شفثيه ، ووطغت على نظراته أمارات خبث وقال :

— إنه سيشتري جلبابا من الصوف .

فسارعت قائلاً :

— لأجل .. لأجل .. العيد !؟

فضحك وردّ فى سخرية أخرجت الكلام فى أنفه ..

— نعم .. لأجل .. العيد . لماذا لا تقول من أجل ؟

— من أجل من فينا ؟

— وهل هذا محتاج إلى سؤال أيها الغبي ؟ من أجل أنا .. أما أنت

فأنت تعلم ماذا ستلبس !

و كنت غنيا من التعريف طبعاً ، فإننى أعلم أنى لا ألبس إلا ما يخلعه
أخى . لكن فرحتى بملابسه القديمة لم تكن تقل عن فرحته بالملابس
الجديدة على الرغم من حفلة التأنيب التى كان أبى يقيمها لى يوم آخذ
الملابس المخلوعة : « لو كنت تستحق جديداً لقدمته لك » .. « إن أخاك
يأخذ أجر اجتهاده وذكائه ، وأنت تأخذ ثمن غباوتك وإهمالك » . وقلت
له مرة : « أعطنى فرصة واحدة لأكون مثله » . فكانت الفرصة صفقة
على بخدى واتهاما لى بأننى أكره لأخى الخير .

وسكت القروى الصغير برهة وحلق فى سماء الحجره ثم تنهد ليكمل
حديثه :

— ولما عاد أخى يسخر منى ويبالغ فى زهوه بمنزلته عند أبيه ، ثار الغل
فى قلبى فقلت له : عندما يعود أبوك من السفر فإننى سأعرف ماذا أقوله
عنك ليعرف أنك غير أهل هذا كله .

فأجابنى متحدياً :

— ماذا ستقول أيها الكذاب ؟

فهزرت كتفى قائلاً فى عدم مبالاة :

— أنت تعرف .. نعم تعرف !!

فقام غاضباً وسحبنى خارج الدكان وأشبعنى ضرباً . وتجمع
الفلاحون ففضوا الشجار وقال أحد المسنين منهم : « إذن ماذا تفعلون لو

غاب أبوكم إلى الأبد ؟

ثم عاد أبى ..

وكنيت بعيدا عن الدكان لأمر ما ، لذلك فقد فوجئت بوجوده فيه .
ولما ألقيت عليه السلام لم يرد .. وكان متغير الملامح بشكل بث الرعب فى
قلبى ..

وتقدمت منه فسلمت عليه وملت لأقبل يده ، فسحبها منى ولطمنى
على وجهى ..

خيّل إلى أننى غريب عنه وأنه ليس أبى . ومن خلال دموعى رأيت
بسمة الشماتة على وجه « سعد » . فرفعت صوتى سائلا باحتجاج عن
سبب كل هذا ، فما كان من أبى إلا أن قدم لى القميص الذى كنت أخطه
وبه تلف بالغ صنعتته بالطبع يد أخى فى أثناء غيابه ، ولم أنكر أننى أنا الذى
قمت بالحياكة لكن غيرى هو الذى قام بالتلف . وسارعت فورا باتهام
أخى وبحت لأبى بالسر الذى هددته به ، فقلت له : « إنه يدخن » .
وابتسم « سعد » وابتسم أبى سائلا : لماذا لم تنبههم إلا الآن ؟ ثم
استطرد يقول لى : « لا .. لا تقسم ، فإن كذبة بلا قسم أصدق من
صدقك باليمين » .

وعند ذلك عرفت أنه لا وسيلة لإصلاح الواقع .. ففررت .

وفى الوقت الذى كان الشاب يقص فيه القصة ، كان حزن مشوب
بالحنق يحيط بقلب أبيه .. وحزن شديد مشوب بالعجز يحيط بقلب
أمه .. وحزن خفيف كأنه على غريم منافس خرج من الميدان يحيط بقلب
الأخ .

وسأل الأب في مناطق قرية ، ثم قرر عنادا ألا يسأل عنه ، وأن الجوع كفيف بأن يرجعه إليه .

أما الشاب فقد ذهب إلى أحد الخياطين في المدينة وبدأ يعمل عنده ، وسرعان ما نال الفرصة التي كان محروما منها عند أبيه وظهرت حقيقة موهبته .. ومع الأيام نال ما كان يصبو إليه .

وفي ليالي الأعياد التي يحن فيها كل غريب إلى أهله ووطنه — كان حنينه إلى القرية .. لا يمكن أن يكون خالصا من هذه الذكريات .

ولما ثبت نجاحه في المدينة لم يكن من المعقول أن يعود إلى القرية ليكمل خياطاً من جديد . بل كان العكس .. فقد بات أخوه يحسده ويحلم باليوم الذي يصبح فيه في منزلة مثل منزلة أخيه .

وتمر الأيام . وانتقل « سعيد » إلى العاصمة حيث يعمل عند أشهر حائكى الملابس العربية في حي الأزهر . ويدخل عليه رجل أنيق من رواد المحل فيجاذبه أطراف الحديث ، ويتبين كل منهما أنهما من أهل قرية واحدة . وسأله الرجل في اهتمام :

— ألم تسافر إلى القرية من زمن بعيد ؟

— منذ عشرة أعوام وأكثر .

— فشقق الرجل مستبكراً .

— عشرة أعوام !؟

— نعم .

— ولم تر أهلك ؟

— فسكت ولم يرد ، فاستطرد الرجل :

— لقد رأيتهم أنا في الشهر الماضى .

— وكيف حالهم ؟

— أحسن ما يمكن عمله أن ترى أباك بنفسك .

ولما انتهى اليوم ورجع « سعيد » إلى مسكنه لم تفارقه ذكرى هذا الحديث . وأطل من نافذة حجراته العليا في حي « القلعة » فرأى أنوار القاهرة تحت ورأى في السماء من فوقه قمرا ذكره بالذي رآه ليلة فر من دارهم . لكنه في هذه الوهلة لم يحس إلا بخنين صاف يشوبه الحب . فقرر أن يسافر إلى أهله .

ولم يكن بينه وبين العيد إلا بضعة أيام انتظر حتى انقضت ، ثم سافر بغتة . ورأى أثناء عودته الطريق الزراعى الذى حمله إلى الخارج والمصطبة التى نام عليها الخفير ، فخیل إليه أنه يدخل « مدينة مفتوحة » كانت منذ عشرة أعوام مدججة بالسلاح .. أعنى ليلة رحيله .. فابتسم . وكان الوقت ليلا والفصل صيفا وأبواب الدور معظمها مفتوحة . ورائحة الكعك تنبعث من الأفران فيعبق بها الجو .

ووقف « سعيد » على باب الدار وكان مواربا .. وتناهى إليه صوت أمه مرتعشا ضعيفا ولم يسمع صوت أبيه . فلما دخل ألفاه جالسا فى الدهليز فحملق الرجل بعينين ضعيفتين أهلكتهما الإبرة قائلا :

— سعد ؟

— لا يا أبى .. أنا سعيد .

— سعيد ؟ .. مستحيل . لكن ..

وأمسك رأسه بكلتا يديه فشم من ملابسه رائحة المدينة ، فأجهش بالبكاء وصار يقول فى صوت عال وحركة غير إرادية :

— نعم سعيد ! سعيد ! .. سعيد ! .. يا أم سعيد .. تعالى فهذا

ابنك ..

وجاءت من الداخل امرأتان إحداهما عجوز والأخرى صبية . وكانت الأولى هي أمه والثانية زوجة أخيه .. وعاد من الخارج الابن الأكبر فألقى أخاه في الدار ، فسلم كلاهما على الآخر ودموع الفرح تغالب عينيهما .. لأن البعد يغسل عن نفوسنا أحقاد المطامع .

ولما انتهت السهرة وانصرف الابن الأكبر ، انفرد الوالدان بابنهما الصغير ، وقصّ الأب على ولده مرارة العيش التي يلقيونها الآن في القرية . فها هو ذا نصف مكفوف . وقد كثر الخياطون في القرية ، وكان المنافسون الجدد أكثر مهارة من أخيه الكبير كذلك فإن الأحوال قد ساءت . ثم سكت الأب واستأنف حديثه :

— وهأنت ذا ترائى أعرج .. لقد سقط المقص الكبير بكل ثقله من أعلى منصدة الماكينة على قدمي فترك فيها عرجا خفيفا . وهذا ما لقيته في عشر سنوات يا بني !

وكان سعيد يقرر خطتها قبل عودته إلى المدينة :

— ستكون معي يا أبى أنت وأمي لأننى في محبوبة من الرزق . أريد ناسا يشاركوننى فيها فتعالوا لنعيش معا .

فسأل الأب في خجل :

— حسن .. لكن .. وأخوك ؟

فهتف سعيد في عجلة :

— وأخى أيضا .. وهل تضيق علينا المدينة ؟ سأدبر له عملا .. لكنه سيكون في بيت مستقل إذا أراد ذلك ..

الفهرس

صفحة

٥	١ - حلم آخر الليل
١٧	٢ - الراية البيضاء
٢٩	٣ - سقف من الزجاج
٣٩	٤ - الشيء الممكن
٤٧	٥ - السلوى
٥٥	٦ - اقتلوني بسيف الحب
٦٦	٧ - الرجل المريض
٧٤	٨ - سحابة صيف
٨٥	٩ - امرأة ومصباح
٩٢	١٠ - يريد أن ينساها
٩٩	١١ - تروجة مثلها
١٠٨	١٢ - أملان يتحققان
١١٦	١٣ - بركة مخزن القمح
١٢٣	١٤ - بقية العمر
١٣١	١٥ - صديقان في المدينة
١٣٧	١٦ - جددنا المواعيد
١٤٦	١٧ - عبير الحرية
١٥٣	١٨ - قلب إنسان
١٥٩	١٩ - اليوم الموعود
١٦٦	٢٠ - لقاء في الصيف
١٧٥	٢١ - حنانك يا ألى

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٩

الترقيم الدولي : ٩ - ٠٢٨٦ - ١١ - ٩٧٧

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

1. The first part of the document is a list of names and titles, including the names of the authors and the titles of the papers. This list is organized alphabetically by the last name of the author.

مكتبة مصر
٣ شارع كائن صدقي - البحالة

Bibliotheca Alexandrina



0293762

الشمع ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه